الفصل الرابع

أشهر علماء تمبكت وجنى وغاؤ الذين لهم أثر بارز في ازدهار الحركة العلمية والثقافية في مدن السودان الغربي في القرون الثامن والتاسع والعاشر الهجري

يضم هذا البحث الموضوعات التالية:

١ ـ ترجمة مختصرة لأشهر علماء تمبكت الذين قاموا بدور بارز في ازدهار الثقافة الإسلامية والحركة العلمية في أفريقية الغربية كلها من أسرة أقيت.

٢ ـ أشهر العلماء الذين ساهموا في ازدهار الثقافة الإسلامية في جامعات تمبكت ومدارسها من غير أسرة أقيت.

٣ ـ أهم النتائج التي نستنتجها من تراجم هؤلاء الأعلام حول تطور الحركة العلمية والثقافية في السودان الغربي في عهد أمبراطوريتي مالي وسنغاي.

٤ ـ الحركة الثقافية والفكرية في مدينة جنى من القرن السادس حتى القرن الحادي عشر الهجريين.

٥ ـ تاريخ الحكم في مدينة جنى وحركة العلم والثقافة فيها تحت ظل الحكومات التي مرت عليها.

٦ ـ الثقافة الإسلامية في جنى وفقهاؤها.

٧ ـ أشهر العلماء والفقهاء في مدينة جنى الذين أثروا الحياة العلمية والثقافية في المنطقة وظهر دورهم بارزاً في ازدهار الثقافة الإسلامية في جنى.

٨ ـ الكتب الدراسية في جامعات ومعاهد الثقافة الإسلامية في

obeikandl.com

كل من تمبكت، وغاو وجنى وغيرها من مدن السودان الغربي في عهد ازدهار العلم والإسلام في الدولتين الإسلاميتين مالي وسنغاي.

٩ ـ استيلاء جيش ملك مراكش أحمد المنصور السعدي الملقب بالذهبي على مملكة سنغاي وأثر ذلك على الثقافة الإسلامية ومعاهدها وحركة العلم والعلماء في السودان الغربي كله.

١٠ ـ نتائج غزو المغاربة أمبراطورية سنغاي الإسلامية والقضاء عليها بشكل نهائي من الناحية الثقافية والعلمية، ومن الناحية الدينية، ومن الناحية الاقتصادية والسياسية.

obeikandl.com

أشهر علماء تمبكت وجنى الذين لهم أثر بارز في ازدهار الحركة العلمية والثقافية في مدن السودان الغربي في القرن الثامن والتاسع والعاشر الهجري

عندما قام سلاطين سنغاي من آل أسكيا برعاية الحركة العلمية والثقافية وشجعوها واحترموا العلماء والفقهاء وشجعوهم على البذل والعطاء وبنوا المدارس والمعاهد والجامعات بتمبكت برز كثير من رجالات العلم في مختلف الفنون العلمية في مدينة تمبكت من أهل السودان وممن توافد إليها من علماء الشمال والمغرب ومصر والحجاز. كما تقدم ذكر أسماء بعضهم وكان من أشهر علماء هذه المدينة:

الفقيه الحاج:

أول من أورد السعدي ذكره من علماء مدينة تمبكت هو الفقيه الحاج جد القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر بن الحاج، وكان من علماء جامعة سنكري، تولى القضاء بتمبكت في أواخر دولة مالي، وهو أول من أمر الناس بقراءة نصف حزب من القرآن للتعليم في مسجد جامع سنكري بعد صلاة العصر، وبعد صلاة العشاء. وهو من العلماء الذين هاجروا أو استقدموا في عهد مملكة مالي الإسلامية إلى تمبكت للمشاركة في النهضة الثقافية التي ازدهرت في ذلك الوقت والتدريس في جامعة سنكري وكان مقدمه من (بير) مع أخيه السيد الفقيه إبراهيم وآثر إبراهيم أن يسكن بلدة بنك إلى أن توفي فيها، وله مواقف مشهودة في صد قبائل الموشي الوثنية عن هذه البلدة[1]، ومن

(١) انظر تاريخ السودان الباب التاسع ص ٢٧ وفي ذكر علماء تنبكت وبلدة بنك قريبة من تمبكت في جنوبها وقبائل الموشي مساكنها جنوب تمبكت.

نسل هذا الفقيه العالم علماء آخرون تولوا مناصب القضاء والتعليم في مناطق أخرى من مدن السودان غير تمبكت مثل ناحية بندبغ، من قبل الحاج أسكيا محمد[١]. ولم يذكر السعدي ما يشير إلى أن هذا الفقيه من أسرة أقيت المشهورة بالرئاسة العلمية في السودان كله. وإنما أشار إلى بعض الأمور التي سببت الجفاء المؤقت بين أسرة الحاج جد القاضي عبد الرحمن الذين كانوا قضاة في بعض الأقاليم في مملكة سنغاي، وبين الفقيه محمود بن عمر أقيت[٢].

ولعل هذا هو السبب في عدم انضمام هؤلاء إلى أسرة أقيت. وأفراد أسرة أقيت يضاف إلى اسمهم «أقيت» أو «أندغمحمد»[٣]. ونلاحظ من كتب أحمد بابا وتاريخ السعدي[٤] وتاريخ الفتاش: أن الأسماء التي ورد فيها اسم «أندغمحمد» لم ترد فيها كلمة أقيت على الرغم من أن الأسرة واحدة. وتفسير ذلك ما ذكره السعدي من أن أسرة أقيت تنقسم إلى فرعين؛ فرع من جهة الأمهات، وفرع من جهة الآباء.

وفرع (أندغمحمد) من جهة الأمهات، وقال عند حديثه عن الفقيه أبي عبد الله أندغمحمد ـ كما سيأتي ـ ومنه تنسل كثير من شيوخ العلم والصلاح، منهم من جهة الآباء ومنهم من جهة الأمهات، ومنهم من جهتهما معاً[٥].

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨.

(٢) تاريخ السودان ص ٢٨.

(٣) لفظ (أندغمحمد) من الألفاظ الدالة على التعظيم والتبجيل عند أهل غرب أفريقيا في ذلك الوقت. انظر تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا ص ١٩٤ مخطوط ونقل هذا عن نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر لابن الطيب أبي عبد الله محمد ص ١٦٨.

(٤) تاريخ السودان ص ٢٨.

(٥) نفس المرجع السابق.

العلماء الذين انحدروا من نسل العلامة الفقيه محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى بن كدالة بن بكى بن نيق بن لف بن يحيى بن تشت بن تنفر بن حبراي بن أكنبر بن أنص بن أبي بكر بن عمر الصنهاجي الماسني[1]. يعتبرون من أعظم العلماء الذين لهم أثر بارز في الحياة العلمية والثقافية في معاهد تمبكت وجامعاتها ويمثلون العنصر الغالب في الحركة الفكرية والثقافية في السودان الغربي كله. فلذا سينصب الاهتمام على ترجمة أبرز العلماء منهم وأكثرهم تأثيراً في المجتمع السوداني. وأبدأ بجدهم بعد أن عرفنا أنهم يتفرعون إلى فرعين فرع أقيت وفرع أندغمحمد.

محمد أقيت:

هاجر محمد أقيت هذا، جد أسرة أقيت من موطنه الأصلي: بلاد ماسنة إلى بلدة (بير) ويذكر السعدي أنه سمع من حفيده هذه الأسرة: الشيخ أحمد بابا التنبكتي يروي سبب هجرته من بلدة ماسنة إلى (بير) هو بغض محمد أقيت الفلانيين الذين كانوا يجاورونه في السكن فلم يشأ لأبنائه أن يتناسلوا معهم. وقال عنه: إنه على يقين من عدم مناكحته معهم، ولكن يخاف ذلك على أولاده، فقرر الرحيل لئلا يتناسلوا معهم[2].

وبعد هجرته إلى بير رغب في أن يسكن تمبكت ولكن واجهته مشكلة خلافية قديمة مع حاكمها آكل ـ الذي استولى عليها واستقل بها عن مملكة مالي المفككة الأوصال في آخر أيامها. ولكن جرت وساطة نجحت في التوفيق بينهما فدخل مدينة تمبكت بعد ذلك وكان ذلك في منتصف القرن التاسع الهجري[3] وأشهر علماء الثقافة الإسلامية واللغة

---

(١) فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ص ٣١ وتاريخ السودان ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) تاريخ السودان ص ٣٥ ـ ٣٦ وتاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غربي أفريقيا ص ١٩٦/ ١٩٧.

(٣) تاريخ السودان ص ٣٦ وفتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ص ١١٢ ـ الطبعة الأولى للبرتلي الولاتي.

العربية الذين انحدروا من هذه الأسرة العريقة في العلم وأثروا الحركة العلمية والثقافية الإسلامية في تمبكت ومدن غرب أفريقيا هم:

١ ـ الفقيه أبو عبد الله أندغ محمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن نوح ووصفه السعدي وصاحب فتح الشكور بأنه معدن العلم والفضل والصلاح، ومنه تنسل كثير من شيوخ العلم والصلاح، وهو جد جد أحمد بابا لأمه، وكان فقيهاً تولى القضاء بتمكبت في أواسط القرن التاسع الهجري. وحكى السعدي عن أحمد بابا أنه أول من خدم العلم من أجداده[١]. وكان أندغمحمد من شيوخ سنكري وعلمائه الذين قاموا بدور بارز في جامعة تمبكت التي تمثل إحدى المنارات للتقدم الفكري والثقافي في العامل. وأهم مركز تعليمي في وسط وغرب أفريقيا إبان ازدهار الأمبراطوريتين الإسلاميتين مالي وسنغاي. ولم يذكر السعدي والولاتي صاحب فتح الشكور تاريخ وفاة هذا العالم ولا مولده.

٢ ـ عمر بن أحمد:

وهو والد جد الشيخ أحمد بابا التنبكتي. وكان عالماً صالحاً تتلمذ على الفقيه القاضي مودب محمد الكابري. وكان حياً حول بداية الثلث الثاني من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، لأن شيخه الفقيه مؤدب الكابري أدرك علماء من تمبكت في أواخر دولة مالي الإسلامية[٢]. وكان الشيخ عمر بن أحمد هذا من فقهاء وعلماء جامعة سنكري الذين قاموا بإثراء الثقافة الإسلامية واللغة العربية في المنطقة كلها لا في تمبكت وحدها.

٣ ـ المختار النحوي:

هو المختار بن عمر بن أحمد السالف الذكر، لقب بالنحوي

---

(١) المرجعين السابقين تاريخ السودان وفتح الشكور في المكان نفسه.

(٢) انظر تاريخ السودان ٢٨ وكفاية المحتاج لأحمد بابا مخطوط ٢٧.

لتضلعه في هذا الفن، وكان عالماً بكل فن من فنون العلم، عاصر هو وأبوه الفقيه يحيى التادلسي، وتوفي في أواخر العام الثاني والعشرين بعد تسعمائة[1]. حوالي سنة ١٥١٦ م وكان من شيوخ جامعة سنكري وعلمائها الذين ساهموا في بناء قواعد النهضة الثقافية وازدهارها في غرب أفريقيا بصفة عامة وفي تمكبت بصفة خاصة.

٤ ـ عبد الرحمن بن عمر:

هو الفقيه العالم عبد الرحمن بن عمر بن أحمد أخو الفقيه المختار النحوي. كان من الفقهاء المتخصصين في تدريس كتاب التهذيب للبرادعي، وقد وصفه السعدي بالتقوى والحلم[2].

٥ ـ أحمد برىء بن أحمد بن أندغمحمد أبو العباس:

وكان من العلماء الأتقياء المترفعين عن أغراض الدنيا المتواضعين لله وكان من شيوخ سنكري وتخرج على يديه جماعة كثيرة من شيوخ العلم من المتأخرين من أهل سنكري[3] وهو من الشيوخ اللامعين في العلم في عهد ازدهار الثقافة الإسلامية في أمراطورية سنغاي.

٦ ـ أبو عبد الله بن المختار النحوي:

هو أبو عبد الله أندغمحمد بن الفقيه المختار النحوي بن أندغمحمد حفيد عمر بن أحمد والد جد أحمد بابا تقلد منصب إمام مسجد سنكري وهو منصب علمي عظيم في ذلك الوقت تسلمه من شيخ الإسلام أبي البركات الفقيه القاضي محمود عند كبر سنه وعجزه

---

(١) تاريخ السودان ص ٢٨ ـ ٢٩ وفتح الشكور ص ١١٣.

(٢) تاريخ السودان ص ٢٩.

(٣) السعدي ص ٢٩، وفتح الشكور ص ٢٨، ولم يذكر السعدي تاريخ وفاته، وقال صاحب فتح الشكور: (لم أقف على تاريخ وفاته رحمه الله).

عن القيام بمهام المنصب. وقد وصف السعدي أبا عبد الله بن المختار بأنه عالم تقي ورع متواضع واثق بالله، وله صيت في العلم بعلوم اللغة العربية.

وهو ممن تخصصوا في تدريس كتاب الشفاء للقاضي عياض وسرده في شهر رمضان المبارك بمسجد سنكري. وكان مادحاً لرسول الله ﷺ[1].

٧ ـ أبو عبد الله محمد:

هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن الإمام أندغ محمد ابن الفقيه المختار النحوي السالف ذكره وكان مثل والده مدرساً كتاب الشفاء في رمضان بعد موت أبيه في مسجد سنكري وظل مدرساً في جامع سنكري حتى وافته المنية. ولم يذكر السعدي تاريخ وفاته[2].

٨ ـ الفقيه المختار بن محمد:

هو الفقيه المختار بن محمد بن الفقيه المختار النحوي بن أندغمحمد، كان مثل أسلافه في القيام بالتدريس ومدح الرسول ﷺ، وذكر السعدي أنه كان مبالغاً في مدح الرسول ﷺ وخاصة بعد حجه وزيارته للمدينة المنورة[3]. وهو الذي حمل رسالة تحية ودعاء بعد حجه من الشيخ السيد محمد البكري العالم المصري المتوفى سنة ١٥٨٧ م إلى أسكيا نوح بن أسكيا داود ويدعو له فيها بالإعزاز والإكرام والدعاء له بخيري الدنيا والآخرة[4].

---

(١) تاريخ السودان ص ٢٩ ولم يذكر السعدي تاريخ وفاته. وانظر فتح الشكور ص ١٠٧ وذكر الولاتي أنه لم يقف على تاريخ وفاته.

(٢) تاريخ السودان ص ٢٩.

(٣) تاريخ السودان ص ٢٩ وفتح الشكور ص ١٠٧ وتاريخ الفتاش ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٤) انظر تاريخ الفتاش ص ١٦٧ ـ ١٦٨. وتاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريبيا ص ١٩٩.

٩ ـ أحمد بن أندغمحمد:

وهو أبو العباس الفقيه أحمد بن أندغمحمد بن محمود بن الفقيه أندغمحمد الكبير وصفه السعدي بالذكي الفطن العالم بفنون العلم من الفقه والنحو والأشعار وغير ذلك[١]. وهو من الذين ظهر لهم أثر بارز في ازدهار الثقافة الإسلامية العربية إلى أبعد الحدود في طول البلاد وعرضها في أيام ازدهار أمراطورية سنغاي الإسلامية[٢].

١٠ ـ عبد الله ابن الفقيه أحمد بري:

هو أبو محمد عبد الله بن الفقيه أحمد بري بن أحمد بن الفقيه أندغمحمد الكبير، وهو من ذريته من جهة الأب والأم لأن أمه أخت الفقيه أبي العباس أحمد بن أندغمحمد. كان مفتياً شرعياً في زمانه، نحوياً لغوياً متواضعاً واشتهر في زمانه بمعرفة علوم القرآن، وتوثيق الأسانيد. ومن أسباطه شيوخ الإسلام الثلاثة وأئمة الأعلام: الفقيه عبد الله، والفقيه الحاج أحمد، والفقيه محمود أبناء الفقيه عمر بن محمد أقيت[٣].

١١ ـ الفقيه عبد الله بن عمر المولود سنة ٨٦٦ والمتوفى سنة ٩٢٩ هـ[٤]:

هو الفقيه عبد الله بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي المسوفي شقيق جد أحمد بابا (أحمد بن عمر) وصفه أحمد بابا: (بالحافظ الزاهد الورع والتوقي)، وكان من الفقهاء الحفاظ الذين قاموا بالتدريس في تمبكت ونشروا الثقافة الإسلامية في ربوعها. ولم يكتف بالتدريس في تمبكت وحدها، بل درس أيضاً

---

(١) تاريخ السودان ص ٣٠.

(٢) تاريخ الفتاش ص ١٧٨ ـ ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٣) تاريخ السودان ص ٣٠.

(٤) انظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص ١٦١.

بوالاتا. وتوفي بها. ومن تحريه أنه كان له خادم يبيع اللبن ويجمع ثمنه فباعه مرة بعد المغرب ثم أطلعه على ذلك بعد أن خلط الخادم ثمنه مع غيره من ماله فتصدق بالجميع لأجل تعاطيه البيع بالليل. وكان مالا له بال[1].

١٢ ـ أحمد بن عمر المتوفى سنة ٩٤٢ هـ[2]:

هو أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن محمد أقيت بن عمر بن يحيى التكروري التنكبتي ـ جد أحمد بابا ـ وعرف بالحاج أحمد، أكبر الأخوة الثلاثة المعروفين في قطرهم بالعلم والدين. ووصفه أحمد بابا بأنه كان خيراً فاضلاً صالحاً متورعاً محافظاً على السنة والمروءة والصيانة والتحري محباً في النبي ﷺ وصحبه وملازماً لقراءة الشفاء للقاضي عياض معتنياً به، فقيهاً نحوياً لغوياً عروضياً محصلاً بارعاً حافظاً معتنياً بتحصيل العلم ونسخ كتبه، كتب بخطه عدة دواوين كثيرة وجمع كثيراً من الفوائد والتعاليق، أخذ العلم عن جده لأمه وكان قاضي تمبكت وعلى أهل ولاتن، أخذ النحو عن خاله الفقيه مختار. ثم ارتحل إلى المشرق فحج عام ٨٩٠ هـ ولقي السيوطي وخالد الوقاد الأزهري إمام النحاة وشارح التوضيح وغيرهما ثم رجع إلى بلاده في زمن سني علي ملك سنغاي. وزار بلاد كنو وغيرها من بلاد السودان. وجلس للتعليم ودرس العلم فأخذ عنه جماعة منهم أخوه الفقيه القاضي محمود بن عمر قرأ عليه المدونة وغيرها ولم يزل دؤباً مجتهداً في تعليم العلم وتحصيله حتى توفي ليلة الجمعة من ربيع الثاني عام ٩٤٢ هـ عن نحو ثمانين سنة، وطلب للإمامة

---

(١) نيل الابتهاج ص ١٦١.

(٢) نيل الابتهاج ص ٨٨ ـ ٨٩ وتاريخ السودان ص ٣٧.

فامتنع فضلاً عن غيرها وترك أولاداً نجباء[1].

١٣ ـ أحمد بن أحمد بن عمر ٩٢٩ ـ ٩٩١هـ[2]:

تقدم له ترجمة في العلماء الذين رحلوا في طلب العلم إلى المشرق الإسلامي ثم عادوا إلى أوطانهم وجلسوا للتدريس في جوامع تمبكت وغيرها من مدن السودان، إلا أنه نظراً لقوة تأثيره في الحركة العلمية والثقافية التي ازدهرت في تمبكت وسائر بلاد السودان في ذلك الزمان، ولبروز أثره وبقاء آثاره العلمية، فلذا رأيت إعادة الترجمة له في الذين ساهموا في الحركة الثقافية والنهضة العلمية التي تمت وازدهرت في تمبكت في تلك الفترة.

وهذا الفقيه العالم المصلح هو والد العلامة الفقيه المؤرخ أحمد بابا التنبكتي.

حياته العلمية:

هو أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي يحيى التنبكتي، قال عنه ابنه أحمد بابا: كان علامة فهامة ذكياً داركاً محصلاً متفنناً محدثاً أصولياً بيانياً منطقياً. أخذ العلم عن إمام بلده عمه محمود بن عمر وغيره. ورحل للشرق للاستزادة في العلم ـ فحج سنة ٩٥٦ هـ وزار المدينة ولقي في مصر بعض مشاهير العلماء في ذلك الوقت منهم الشيخ الناصر اللقاني، والشريف يوسف الأرميوطي تلميذ السيوطي وجمال الدين ابن الشيخ زكريا، والشيخ التاجوري والأجهوري وغيرهم من هذه الطبقة، فاستفاد منهم، ولقي بالحجاز

---

(١) المرجعين السابقين في الصفحات نفسها تقدم الحديث عنه فيمن رحل إلى المشرق لطلب العلم من علماء السودان الغربي ثم عادوا إلى بلادهم ونشروا الثقافة الإسلامية في ربوعها.

(٢) نيل الابتهاج ص ٩٣ وما بعدها، وفتح الشكور ص ٣٠ وتاريخ السودان ص ٤٢.

بمكة والمدينة جماعة من كبار العلماء منهم أمين الدين الميموني وابن حجر المكي، والملائي، وبركات الحطاب[1] وعبد العزيز اللمطي، وعبد المعطي السخاوي، وعبد القادر الفاكهاني وغيرهم، وأجازه بعضهم، ولازم أبا المكارم محمد البكري وقيد عنه فوائد[2]، ثم عاد إلى بلاده وجلس للتدريس والتأليف والإفادة. وألف شرح مخمسات العشرينيات الفازازية لابن مهيب في مدح النبي ﷺ ولم يكمل، وشرح منظومة المغيلي في المنطق شرحاً جامعاً حسناً وكتب حاشية على شرح التتائي على خليل نبه فيه على مواضع السهو منه وقطعا على مواضع من خليل وشرحاً يسيراً جداً على جمل الخونجي، وعلق على صغرى السنوسي والقرطبية، وألف في الأصول ولم يكمل. جلس لتدريس صحيح البخاري في رجب وشعبان ورمضان لمدة خمس وعشرين سنة ثم صحيح مسلم كذلك حتى توفي وهو يدرس مسلم[3]. وأخذ عنه العلم أشهر علماء تمبكت من بعده منهم الفقيهان العلامتان الأخوان محمد وأخوه أحمد ابنا الفقيه محمود بغيع أخذا عنه الأصول والبيان والمنطق وغيرها. وعبد الله وعبد الرحمن ابنا الفقيه محمود بن عمر أقيت وابنه أحمد بابا وقال عن نفسه: وحضرت أنا عليه أشياء عدة وأجازني جميع ما يجوز له وعنه كتب لي بخطه وسمعت بقراءته الصحيحين والموطأ والشفاء. وغير هؤلاء من العلماء في تمبكت وغاو وجنى وغيرها ممن أخذوا عليه وكان رحمه الله رقيق القلب عظيم الجاه وافر الحرمة عند الملوك وكافة الناس. نفاعاً بجاهه، ولا ترد له شفاعة، ويغلظ على الملوك ممن دونهم وينقادون له ويزورونه في

---

(١) هو بركات بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب المكي المتوفى سنة ٩٨٠هـ انظر شجرة النور الزكية.

(٢) نيل الابتهاج ص ٩٣ ـ ٩٤. وتاريخ السودان ص ٤٢ وفتح الشكور ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٣) المراجع السابقة في الصفحات نفسها.

داره، ولما مرض في غاو عاصمة سنغاي كان السلطان أسكيا داود أعظم سلطان في السودان في ذلك الوقت وهو سلطان أمراطورية سنغاي كان يزوره ويأتيه بالليل ويسمر عنده حتى برىء احتراماً له، وكان جماعاً للكتب وافر الخزانة محتوية على كل علق نفيس سموحاً بإعارتها[1]...

١٤ ـ القاضي محمود أقيت: ٨٦٨ ـ ٩٥٥ هـ/١٤٦٣ ـ ١٥٤٨م[2]:

هو شيخ الإسلام أبو البركات الفقيه القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت بن يحيى التنبكتي[3]، قال عنه أحمد بابا في النيل: أبو الثناء وأبو المحاسن، عالم التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها وإمامها بلا مدافع، كان من خيار عباد الله الصالحين العارفين به ذا ثبت عظيم في الأمور وهدى تام وسكون ووقار اشتهر علمه وصلاحه في البلاد، وطار صيته في الأقطار شرقاً وغرباً. وظهرت ديانته وورعه وصلاحه وعدله في القضاء ونزاهته، لا يخاف في الله لومة لائم، يهابه السلاطين فمن دونهم ويزورونه في بيته فلا يقوم لهم، ولا يلتفت إليهم، ويهادونه بالهدايا والتحف، وكان شيخاً كريماً جواداً يفرق ما يهدى له بين الناس. تولى القضاء عام ٩٠٤ فشدد في الأمور، وسدد وتوخى الحق في الأحكام، فظهر عدله بحيث لا يعرف له نظير في وقته. وإلى جانب توليه منصب القضاء كان يقوم بالتدريس مع ملازمته له فانتفع به بشر كثير وأحيا العلم بتلك البلاد واشتهر علمه هناك وكثر طلبته في حلقة تدريس الفقه، نجب منهم جماعة كثيرة، وكان أكثر ما

---

(١) انظر تاريخ حياة هذا العالم الجليل في كتاب فتح الشكور ص ٢٩ ـ ٣٠. وكتاب ابنه نيل الابتهاج ص ٩٣ ـ ٩٤ ـ ٩٥. وتاريخ السودان ص ٤٢/٤٣.

(٢) نيل الابتهاج ٣٤٣ ـ ٣٤٤ وتاريخ السودان ص ٣٨.

(٣) انظر المرجعين السابقين.

يدرسه المدونة والرسالة، ومختصر خليل، والألفية وغيرها، وعنه انتشر قراءة خليل هناك في غرب أفريقيا، وكان طلبته يسجلون دروسه عن مختصر خليل وتعليقاته عليه فأخرجوها شرحاً في مجلدين، وانتشر هذا الشرح هناك[1]. حج القاضي محمود عام ٩١٥ هـ فلقي في حجه جماعة من مشاهير علماء المشرق أمثال إبراهيم المقدسي، والشيخ زكريا، والشيخ القلقشندي، واللقانيين وغيرهم من علماء مصر واشتهر عندهم بالعلم والصلاح. ثم عاد إلى بلاده ولازم التدريس والإفادة وإنفاذ الحق[2].

وأخذ عنه العلم والد أحمد بابا كما تقدم وأولاده الثلاثة القضاة: محمد والعاقب وعمر. وغيرهم توفي رحمه الله سادس عشر من رمضان سنة ٩٥٥هـ[3]. والقاضي محمود من أبرز علماء أسرة أقيت وأكثرهم تأثيراً في مدارس تمبكت وغاو في عهد أسكيا الحاج محمد عاهل أمبراطورية سنغاي[4].

١٥ ـ القاضي محمد بن محمود: ٩٠٩ ـ ٩٧٣هـ[5]:

هو القاضي محمد بن محمود بن عمر بن محمد أقيت تولى القضاء بعد وفاة أبيه وصفه أحمد بابا بأنه كان على ما أخبر به والده ـ ذا فهم ثاقب وذهن صاف، فهاماً دراكاً من دهاة الناس[6]. كان عالماً جليلاً ولم يكن له نظير في عمره في الفهم والدهاء ورجاحة العقل له تعليق على رجز المغيلي في المنطق وقد تتلمذ عليه والد أحمد بابا

---

(١) نيل الابتهاج ص ٣٤٤ وتاريخ السودن ص ٣٨.
(٢) انظر المرجعين السابقين.
(٣) المرجعين السابقين.
(٤) المرجعين السابقين وتاريخ الفتاش ص ٧٥ ـ ٧٦.
(٥) النيل ص ٣٤٠.
(٦) نيل الابتهاج ص ٣٤٠.

ودرسه البيان والمنطق وغيرهما وأخذ عليه غيره من علماء تمبكت وغيرهم[1]. توفي في صفر سنة ٩٧٣هـ[2].

١٦ ـ القاضي العاقب بن محمود أقيت: ٩١٣ ـ ٩٩١هـ[3]:

هو قاضي تمبكت العاقب بن محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى التنبكتي، قال عنه أحمد بابا في النيل: أنه كان مسدداً في أحكامه. صلباً في الحق ثبتاً فيه لا تأخذه في الله لومة لائم قوي القلب مقداماً في الأمور العظام التي يتوقف فيها غيره، جسوراً على السلطان فمن دونه، وقع له معهم وقائع وكانوا يخضعون له ويطاوعونه في كل ما أراد، إذا رأى ما يكره عزل نفسه عن القضاء وسد بابه، ثم يلاطفونه حتى يرجع وقع له مراراً. أخذ العلم عن أبيه وعمه، ثم رحل إلى المشرق وحج ولقي الشيخ الناصر اللقاني وأبا الحسن البكري، والشيخ البسكري وغيرهم من هذه الطبقة، وأجازه اللقاني جميع ما يجوز له وعنه، وقال أحمد بابا: وأجازني هو كذلك وكتب لي بخطه[4]. وقال عنه السعدي: أنه قد ملأ أرضه بالعدل بحيث لا يعرف له نظير في ذلك من جميع الآفاق[5]. . وقد مر بنا جانب من إصلاحاته للمساجد.

١٧ ـ القاضي عمر بن محمود أقيت أخو العاقب. ت سنة ١٠٠٣ هـ الموافق سنة ١٥٩٤م[6]:

هو القاضي عمر بن محمود بن عمر بن محمد أقيت. أخذ العلم عن أبيه وبرع في علم الحديث والسير والتاريخ وأيام الناس، وبلغ

---

(١) تاريخ السودان ص ٣٣ . ٣٤ ونيل الابتهاج ص ٣٤٠.
(٢) النيل ص ٣٤٠.
(٣) نيل الابتهاج ص ٢١٩.
(٤) انظر نيل الابتهاج ٢١٨ . ٢١٩ وذكر أنه توفي في أحد عشر من شهر رجب عام ٩٩١ هـ.
(٥) تاريخ السودان ص ٣٤.
(٦) فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ص ١٧٨.

الغاية القصوى في الفقه، حتى قال عنه بعض من عاصره من الشيوخ: أنه لو كان موجوداً في زمن ابن عبد السلام بتونس لاستحق أن يكون مفتياً فيها[1]. قلت وهذه العبارة التي حكاها السعدي عن بعض العلماء دليل واضح على مكانة هذا العالم في العلم، وبرهان ساطع أيضاً على أن علماء غربي أفريقيا في ذلك الزمان كانوا لا يقلون في مستواهم العلمي والفكري والثقافي عن علماء المغرب. بل قد فاق بعضهم علماء شمال أفريقيا والمغرب في أيامه مثل الشيخ أحمد بابا الذي اعترف بعلمه وتفوقه على من سواه من العلماء في وقته وعلماء المغرب[2].

تولى الشيخ عمر بن محمود قضاء تمبكت في آخر يوم من شهر محرم سنة **٩٩٣**هـ بعد أن رفض ذلك حتى كتب له أسكيا سلطان سنغاي أنه إن لم يقبلها يوليها الجاهل، وكل ما حكم به الجاهل لا يسأل عنه غداً بين يدي الله تعالى إلا هو[3].

توفي رحمه الله سنة **١٠٠٣** هـ في مراكش وهو من علماء تمبكت الذين حلت بهم كارثة تنبكت أيام غزو منصور الذهبي ملك مراكش لبلاد السودان. وقد نقل هو وخيار علماء السودان مصفدين بالسلاسل بعد إعدام الكثير منهم في تمبكت وتدمير مكتباتهم العلمية[4]. كما سيأتي بيان ذلك عند الحديث على أثر غزو الجيش المراكشي على الثقافة الإسلامية في تمبكت وغيرها من بلاد السودان.

١٨ ـ أحمد بن محمد بن سعيد سبط الفقيه محمود بن عمر من جهة أمه:

---

(١) تاريخ السودان ص ٣٤.

(٢) انظر ذلك في ترجمته من كتاب فتح الشكور ص ٣١ ـ ٣٧ تجد كيف فاق أقرانه في المغرب وسائر بلاد السودان والمغرب. وانظر أيضاً ترجمته لنفسه في كتابه كفاية المحتاج.

(٣) فتح الشكور ص ١٧٨.

(٤) المرجع السابق وتاريخ الفتاش ١٧٤ وتاريخ السودان ص ١٧١.

عالم فقيه كان من علماء تمبكت المتضلعين في الفقه ومن حفاظ القرآن الكريم المتقنين، ومن مدرسي تمبكت المشهورين. أخذ العلم عن جده لأمه الشيخ محمود بن عمر أقيت. ودرس عليه الرسالة ومختصر خليل، وأخذ عن غيره المختصر والمدونة، وجلس للتدريس من عام ٩٦٠ هـ إلى حين وفاته، وتزاحم عليه طلاب العلم وانتفعوا به[١]. وذكر أحمد بابا في نيل الابتهاج: بأنه أخذ عنه العلم الأخوان الفقيهان: الشيخ محمد بغيع وأخوه أحمد. قرءآ عليه الموطأ والمدونة ومختصر خليل، وغيرها وله استدراكات في الفقه وحاشية لطيفة على خليل اعتنى فيها بالنقل واعتمد على نقل البيان والتحصيل، وقال: إنه حضر دروسه وهو صغير[٢]. وكان مولده سنة ٩٣١ هـ وتوفي في محرم سنة ٩٧٦هـ[٣].

١٩ ـ بابكر بير ٩٣٢ ـ ٩٩١ هـ/ ١٥٢٥ ـ ١٥٨٣م[٤]:

هو الفقيه أبو بكر المعروف بباكر بير بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت[٥]، وهو نموذج حي للعلماء الذين يبذلون النفس والنفيس في سبيل العلم وطلابه، كان رحمه الله يقوم بالتدريس في تمبكت وينفق على تلاميذه المحتاجين وعلى الأيتام وعلى كل تلميذ متغرب[٦].

وذكره أحمد بابا: أنه أول من قرأ عليه علم العربية ففتح الله عليه في مدة قريبة بلا عناء. ووصفه بأنه من خيار عباد الله الصالحين رفض الدنيا والرغبة عن زهرتها مع ما أوتي أهل بيته حينئذ من الرئاسة

---

(١) تاريخ السودان ص ٤٣ وفتح الشكور ص ٢٨.
(٢) نيل الابتهاج ص ٩٥ وتاريخ السودان ص ٤٣ وفتح الشكور ص ٢٨.
(٣) المراجع السابقة.
(٤) نيل الابتهاج ص ١٠٢ وتاريخ السودان ص ٣٢ ـ ٤١.
(٥) المرجعين السابقين.
(٦) تاريخ السودان ص ٣٢ وص ٤١.

والدولة. وقال: ما رأيت قط مثله ولا من يقرب منه في معناه، له تآليف في التصوف وغيره، منها معين الضعفاء، وغيره[1]. رحل مع عائلته في حجته الثانية وأقام بالمدينة المنورة حتى توفي فيها سنة ٩٩١هـ[2]، وهو عم أحمد بابا. وأما أحمد بابا نفسه فسأفرد له ترجمة خاصة نظراً لأثره البارز في العلم وشهرته في السودان والمغرب وحركته الإصلاحية في السودان، وهو أكثر علماء السودان الغربي تأثيراً في ازدهار العلم والثقافة الإسلامية في تلك المنطقة بل وفي المغرب أيضاً وهو عمدة الحركة العلمية والثقافية في السودان، ومرجع العلماء والمؤرخين والباحثين عن الحياة العلمية والثقافية في تلك المنطقة، لذا وجب إفراده بالحديث عن أثره في الحركة العلمية والثقافية في تلك الفترة.

وكل هؤلاء العلماء الذين تقدم ذكرهم بأنهم من العلماء الذين لهم أثر بارز في الشهرة العلمية والثقافية التي اشتهرت بها تمبكت وغاو وتميزت بها مدينة تنبكت عن غيرها حتى أصبحت مركز الدين والعلم والثقافة. كل هؤلاء العلماء من أسرة أقيت.

أشهر العلماء الذين ساهموا في ازدهار الثقافة الإسلامية في جامعات تمبكت ومدارسها من غير أسرة أقيت فهم:

٢٠ ـ القاضي الفقيه العلامة أبو عبد الله مودب محمد الكابري:

كان من أصحاب الحلقات الدراسية في جامع سنكري حيث كان حافلاً يومئذ بالطلبة من السودانيين وأهل المغرب المجتهدين في العلم[3]. وموطن هذا العالم شيخ الشيوخ هو كابرا (ميناء تمبكت الشهير الذي يقع على نهر النيجر) ثم انتقل إلى تمبكت وتوطنها في القرن التاسع. ولم يكن القاضي مودب هو الوحيد من علماء كابرا في

---

(١) نيل الابتهاج ص ١٠٢.

(٢) المراجع السابقة في الصفحات نفسها.

(٣) تاريخ السودان ص ٤٧.

تمبكت بل كان معه الكثيرون من العلماء الذين انتقلوا إلى تمبكت من كابرا، فقد ذكر السعدي: أن الذين دفنوا معه في روضته ثلاثون عالماً من علماء كابرا[١]. وهذا دليل على أن مدينة تمبكت كانت محط أنظار العلماء والطلاب من جميع أرجاء غرب أفريقيا بل من جميع أنحاء العالم الإسلامي في ذلك الوقت، بعد ازدهار الحركة العلمية فيها واشتهارها عالمياً بأنها من أهم مراكز الدين والعلم والثقافة والتجارة في العالم[٢]. وكان الكابري شيخ الشيوخ الذين عاصرهم في تمبكت أمثال الشيخ عبد الرحمن التميمي الذي استقدمه السلطان منسى موسى من مكة المكرمة أثناء حجه. وهو جد القاضي حبيب، والفقيه أندغمحمد الكبير جد القاضي محمود لأمه، والفقيه عمر بن محمد أقيت، والعلامة يحيى التادلسي[٣]. وقد رثاه تلميذه الفقيه يحيى التادلسي في اثنين وعشرين بيتاً من الشعر بين فيها مكانة هذا العالم وأنه من مشاهير العلماء وأنه كان يسلك في طريقه الشرح وتوضيح المعاني والأحكام: الأسلوب المبسط لتقريب الفهم وتسهيل الاستيعاب مع التعمق في الدروس والمصابرة الطويلة في التحضير[٤].

من تلك الأبيات من البيت السادس:

أطلاب علم الفقه تدرون ما الذي يثير هموم القلب من كل وافد
يثير هموم القلب فقد سميدع[٥] فقيه حليم حامل للفرائد

---

(١) المرجع السابق ص ٤٨.

(٢) انظر دولة مالي الإسلامية ص ١٦٧ ـ ١٦٨ ـ ١٦٩ وأمبراطورية غانة الإسلامية ص ١٥١ وتاريخ السودان ص ٢١، وتاريخ الفتاش ص ١٧٨/١٧٩.

(٣) تاريخ السودان ص ٤٧.

(٤) انظر تاريخ السودان ص ٤٨ ـ ٤٩ ومملكة سنغاي ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٥) السميدع بفتح السين والمد السيد الكريم، الشريف السخي، الموطأ، الاكتاف، والشجاع والذئب، والرجل الخفيف في حوائه، والسيف. تطلق على هذه المعاني لغة: انظر القاموس المحيط فصل السين، باب العين ج ٣ ص ٤٠.

بحسن تعليم مقرب فهمه وفتاق تهذيب بحسن الفوائد
محمد الأستاذ مؤدب ذي النهى رباطاً صباراً أمره في التزايد
فيا عجباً هل بعده من مبين ويا عربا هل بعده من مجالد[1]

فهذه الأبيات توضح لنا الطريقة التي يتبعها هذا العالم الجليل في التدريس وصبره على المناقشة في المسائل المختلفة مع طلابه حتى يتمكنوا من بلوغ أهدافهم من التحصيل.

٢١ ـ من فحول علماء جامعة سنكري وإمام مسجد محمد نض في القرن التاسع الهجري: العلامة الفقيه يحيى التادلسي المتوفى سنة ٨٦٦هـ:

هو يحيى بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الثعلبي بن يحيى البكاء بن أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[2]. هكذا ذكر السعدي نسب هذا العالم ولم يذكر مستنده ولا المصدر الذي اعتمد عليه في سياق هذه السلسلة. وزعم أن هذا العالم الفقيه قدم إلى تمبكت فترة ولاية كي محمد نض بين عام ٨٣٧هـ وعام ٨٧٦هـ على تمبكت وأنه تلقاه عند قدومه بالترحاب وأكرمه غاية الإكرام وبنى مسجداً وجعله إماماً فيه، وعرف هذا المسجد بمسجد سيدي يحيى ـ وبلغ الغاية القصوى في العلم والصلاح، وانتشر ذكره في الآفاق، وامتدحه عميد أسرة أقيت في العلم: القاضي محمود بأنه أفضل من دخل تنبكت من العلماء، وكان الشيخ يحيى التادلسي مثالاً للعالم العامل بعلمه، فقد كان يعمل بالمعاملات التجارية لسد حاجته حتى لا يحتاج إلى الناس في شيء

(١) تاريخ السودان ص ٤٩.

(٢) تاريخ السودان ص ٥٠.

من أمور معيشته، وذلك إلى جانب قيامه بالتدريس وإمامة مسجده وكان يدرس في مسجده وبيته وجامع سنكري أحياناً. وكان يقول لطلبة سنكري عند تدريسه إياهم: يا أهل سنكري كفاكم سيدي عبد الرحمن التميمي[1]. وقد تقدم بعض شعره في رثاء شيخه مؤدب محمد الكابري.

٢٢ ـ الفقيه القاضي الإمام/ كاتب موسى[2]:

وهو من أئمة المسجد الجامع الكبير في تمبكت المشهورين وذكر السعدي بأن جميع أئمة هذا الجامع من السودانيين وأن آخر الأئمة من السود الفقيه القاضي كاتب موسى وذكر أنه مكث في الإمامة أربعين سنة لم يستنب ولم يتخلف ولو في صلاة واحدة لما حباه الله من صحة وعافية بين سببها عندما سئل عن ذلك. وقال السعدي أنه من علماء السودانيين الذين رحلوا إلى فاس لطلب العلم بأمر من السلطان العادل سلطان مالي منسى موسى فلما انتهى من دراسته بفاس عاد إلى بلاده مالي وقدم معه الفقيه عبد الله البلبالي الذي استقدمه منسى موسى وخلف عبد الله البلبالي هذا الفقيه القاضي كاتب موسى في الإمامة وهو أول رجل أبيض صلى بالناس إماماً بالمسجد الجامع الكبير وكان جميع أئمته منذ تأسيسه من السود[3].

وكان الفقيه كاتب موسى إلى جانب توليه منصب الإمامة في الجامع الكبير والتدريس فيه يشغل منصب القاضي، ولا يقضي بين

---

(١) انظر تاريخ السودان ص ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥١ والتعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا من القرن ٨ ـ ١٤ هـ ص ٢١٣ ـ ٢١٤ ـ ٢١٥ نقل ما في تاريخ السودان.

(٢) ولم يذكر السعدي اسمه الكامل وإنما ردد اسمه بكاتب موسى. انظر تاريخ السودان ص ٥٧ كما لم يذكر تاريخ ميلاده ولا وفاته.

(٣) تاريخ السودان ص ٥٧.

الناس ـ كما يقول السعدي ـ إلا في رحبته سس دبي في وراء داره من جهة المشرق ينصب به المنصة تحت شجرة كبيرة وهو من علماء السودان البارزين الذين ظهر أثرهم جلياً في نمو الحركة الفكرية والثقافية وساهموا بقسط وافر من العلم في ازدهار الحركة العلمية المباركة في السودان الغربي كله وفي مدينة تمبكت بصفة خاصة التي أصبحت كعبة الثقافة والعلوم في السودان آنذاك[1].

٢٣ ـ مسر بوب الزغراني التنبكتي: ينسب لقبيلة الزغرانيين في غرب السودان الغربي وكان رحمه الله عالماً فاضلاً خيراً صالحاً نادر المثل في قبيلته. وقد اشتهر بالعلم والصلاح على الرغم من أنه ينحدر من قبيلة الزغران التي يصفها السعدي والتواتي بأنها لا تعرف بالصلاح ولا بحسن الإسلام[2]. وهو صاحب الفقيه محمود بن عمر. وكان من أهل الثقة العلمية عند أسرة أقيت، وقد تتلمذ عليه الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود بن عمر أقيت في أول الأمر حتى أنه كان يحترم كل زغراني لأجل شيخه مسر بوب، وذكر السعدي أنه كان في مدرسته ذات يوم فأذنه الناس بجنازة، فقال: من هو؟ «قيل زغراني، قال نصلي عليه لأجل الشيخ مسر بوب فخرج فصلى عليه[3]. وهو من المساهمين في نشر العلم والثقافة الإسلامية في تمبكت والسودان كله. وقال صاحب فتح الشكور: أنه لم يقف على تاريخ وفاته[4].

٢٤ ـ الفقيه صديق تعلى المتوفى سنة **٩٧٣هـ**[5]:

---

(١) المرجع السابق وتاريخ الفتاش ص ١٧٨ ـ ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٢) تاريخ السودان ص ٥١ ـ ٥٢ وفتح الشكور في أعيان علماء التكرور ص ١٤٧.

(٣) المرجعين السابقين.

(٤) فتح الشكور ص ١٤٧ ولم يذكر السعدي أيضاً مولده ولا تاريخ وفاته.

(٥) فتح الشكور ص ١٥٥.

هو الفقيه صديق بن محمد تعلى الكابري الأصل والجنجوي المولد[1]. إمام المسجد الجامع الكبير بتمبكت وأحد علمائه البارزين.

والفقيه الصديق وصفه السعدي بأنه كان عالماً فقيهاً فاضلاً خيراً صالحاً، وهو من علماء بلدة جنج القريبة من تنبكت والمجاورة لها، جاء إلى مدينة تمبكت لينهل من منابع العلم والمعرفة والثقافة في هذه المدينة التي أصبحت كعبة العلم يقصدها العلماء وطلبة العلم. رحل إليها هذا العالم الفقيه وتوطنها على الرغم أنه كان صاحب مدرسة في بلدته جنج وفيها طلبته النجباء والرواية التي ذكرها السعدي وغيره في سبب رحيله من جنج إلى تمبكت وترك مدرسته وطلبته تدل على مدى حرص هذا العالم على الاستزادة من العلم كما توضح لنا مدى ما وصلت إليه مدينة تمبكت من التقدم العلمي والثقافي ومدى تقدم الفكر الإسلامي فيها.

فقد قال السعدي وصاحب فتح الشكور: إن سبب رحيله إلى تمبكت وتوطنه فيها: أنه صور مسألة من مسائل الفقه في مدرسته يوماً واحداً، وهناك من طلبته الذي ارتحل إلى تمبكت بعدما قرأ عليه ما قرأ ثم رجع إلى جنج. فقال: صورة هذه المسألة ليست كذلك على ما سمعت من الفقهاء في تمبكت. فقال: وما هي؟ قال: كذا. وكذا قال ضيعنا عمرنا باطلاً. فمن هذا ارتحاله رضي الله عنه[2]. تولى الفقيه صديق إمامة المسجد الجامع لمدة أربع وعشرين سنة حتى توفي سنة **٩٧٣هـ**[3] فتنازع أهل الجامع الكبير بعد وفاته في الفقيه كداد الفلاني والفقيه أحمد بن الإمام صديق فاختار القاضي العاقب كداد إماماً وهو فاضل من عباد الله

---

(١) تاريخ السودان ص ٦١ وفتح الشكور ص ١٥٤.

(٢) المرجعين السابقين.

(٣) المراجع السابقة.

الصالحين، فمكث في الإمامة اثنتي عشرة سنة[1]. وخلفه بعد موته في الإمامة الفقيه أحمد بن الإمام صديق بأمر القاضي العاقب ومكث فيها خمسة عشر سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام وهو آخر أئمة المسجد الكبير في دولة سنغاي. وظل في الإمامة بعد غزو المغرب مملكة سنغاي والاستيلاء على تمبكت لمدة خمس سنوات[2] رحل الفقيه صديق إلى المشرق الإسلامي وأدى فريضة الحج والتقى بكثير من العلماء في مصر والحجاز ومنهم الشيخ محمد البكري الصديقي ثم عاد إلى بلاده وانتفع الناس بعلمه[3].

٢٥ ـ محمد بغيع[4]: ٩٣٠ ـ ١٠٠٢ هـ/ ١٥٢٣ ـ ١٥٩٣م[5]:

وهو ابن الفقيه القاضي محمود بن أبي بكر بغيع جنوى بلداً ونكرى أصلاً وتولى والده قضاء جنى بعد وفاة قاضيها العباس كب سنة **٩٥٩** هـ[6]. كما سيأتي الكلام عليه عند الحديث على جنى وعلمائها.

وهو محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التنبكتي ولمحمد هذا أخ عالم جليل وهو أحمد بن محمود بغيع، ومحمد بغيع هذا من أشهر علماء تمبكت في وقته وأكثرهم ملازمة للتعليم ونفعاً للطلاب

---

(١) مهر كداد هذا في الحديث والفقه وكان مدرساً وواعظاً. توفي سنة ١٦٢٥م.

(٢) انظر المراجع السابقة وانظر أيضاً تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان لمؤلف مجهول ص ١٧٩ لا يعرف اسم مؤلفه، لكن الثابت أنه كان يعيش في تمبكت وأنه تعلم هناك وكلفه الباشا أبو بكر بوضع كتاب في تاريخ السودان يكمل به عمل السعدي وقد فرغ من تأليفه في ١٩ يوليه عام ١٧٥١م انظر بداية الحكم المغربي ص ٥٣٦.

(٣) تاريخ السودان ص ٦١ وفتح الشكور ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٤) بياء مفتوحة فغين معجمة ساكنة فياء مضمومة، فعين مهملة مضمومة، هكذا ضبطه أحمد بابا والسعدي.

(٥) انظر نيل الابتهاج ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ وتاريخ السودان ص ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥.

(٦) تاريخ السودان ص ١٩، وقد تقدم الكلام على حياة محمد بغيع العلمية فيمن رحلوا لطلب العلم من علماء السودان إلى المشرق الإسلامي.

وأهل العلم ومن أشهر شيوخ أحمد بابا وأشدهم تأثيراً فيه وفي كل تلاميذه. وكان منار عجب معاصريه في الصبر على إيصال الفائدة والمعلومات إلى البليد من تلاميذه بلا ملل أو ضجر.

وقد وصله تلميذه أحمد بابا: بالعالم المتفنن الصالح العابد المفتي من خيار عباد الله الصالحين والعلماء العاملين مطبوع على الخير وحسن النية وسلامة الطوية... وقال: إن الناس كلهم يتساوون عنده لحسن ظنه بهم وعدم معرفة الشر مع السعي في قضاء الحوائج وارتكاب ضرر نفسه فيه والتفجع لمكروههم والإصلاح بينهم ونصحهم إلى محبة العلم وتعليمه...[1].

نشره للعلم عن طريق إعارة الكتب وسعيه في اقتنائها شراءً ونسخاً:

وقال عنه تلميذه في ذلك: وكان يبذل نفائس الكتب الغريبة العزيزة لهم، بحيث لا يفتش بعد ذلك عنها كائناً ما كان من جميع الفنون فضاع له بذلك جملة من كتبه نفعه الله تعالى بذلك، وربما يأتي لباب داره طالب فيرسل له براءة فيها اسم كتاب يطلبه فيخرجه من الخزانة ويرسله له من غير معرفته من هو، فكان في ذلك العجب العجائب إيثاراً لوجهه تعالى مع محبته للكتب وسعيه في تحصيلها شراءً ونسخاً، وقد جئته يوماً أطلب منه كتب نحو، ففتش في داره فأعطاني كل ما ظفر به منها[2].

منهجه في التدريس والتعليم وإيصال المعلومات إلى أذهان تلاميذه:

وصفه أحمد بابا: بأنه كان له صبر عظيم على التعليم آناء الليل

---

(١) نيل الابتهاج ص ٣٤١ وتاريخ السودان ص ٤٣ ـ ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) نيل الابتهاج ٣٤١ وانظر أيضاً تاريخ السودان ص ٤٤ ـ ٤٥.

وصبر على إيصال الفائدة للبليد بلا ملل ولا كسل حتى يضجر حاضروه وهو لا يكترث فنفع الله به كثيراً مع ملازمة العبادة وصلاح النية والتجافي عن رديء الأخلاق... طويل الروح في التعليم لا يأنف من مبتدىء ولا بليد، أفنى فيه عمره، مع تشبثه بحوائج العامة، وأمور القضاء إذ لم يصيبوا عنه بديلاً ولا نالوا له مثيلاً، وقد طلب من جهة السلطان بتوليه قضاء محل السلطنة فأنف منه وامتنع فخلصه الله تعالى.

لازم التدريس والإقراء، ولاسيما بعد موت الشيخ أحمد بن سعيد، وقال أحمد بابا: أدركته أنا يقرىء من صلاة الصبح أول وقته إلى الضحى الكبيرة دولاً مختلفة، ثم يقوم لبيته ويصلي الضحى مدة، وربما مشى بعدها للقاضي في أمر الناس ويصلح بين الناس، ثم يدرس في بيته وقت الزوال ثم يصلي الظهر بالناس ويدرس إلى العصر، ثم يصليها، ويذهب إلى موضع آخر يدرس فيه إلى الإصفرار أو قربه، وإذا صلى المغرب درس في الجامع إلى العشاء، ثم رجع لبيته. وسمعت أنه يحيي آخر الليل دائماً، وكان مع ذلك محققاً داركاً ذكياً فطناً غواصاً على اللطائف، حاضراً الجواب سريع الإدراك وجودة الفهم، معروفاً بذلك[1].

شيوخه ورحلاته العلمية وتلاميذه:

قال تلميذه أحمد بابا: أخذ العربية والفقه على أبيه الفقيه القاضي محمود وعلى خاله، ثم رحل لتنبكت مع أخيه الفقيه أحمد فلازما الفقيه أحمد بن سعيد في المختصر، ثم حجا مع خالهما، فلقوا بمصر الناصر اللقاني والتاجوري والزين البحيري والشريف يوسف والبرهموشي الحنفي والشيخ الإمام محمد البكري وغيرهم فحصلا هناك ما حصلا ثم رجعا بعد أداء فريضة الحج وموت خالهما،

(١) المرجعين السابقين.

فاستوطنا تنبكت فأخذا أيضاً عن ابن سعيد الفقيه والحديث قرأ عليه المدونة والموطأ والمختصر وغيرها ولازماه. وعن السيد الوالد أحمد بن أحمد الأصول والبيان والمنطق فقرآ عليه أصول السبكي والتلخيص، وحضر عليه شيخنا وحده جمل الخونجي ـ الكلام لأحمد بابا ـ ولازم مع ذلك الإقراء فحصل له علوم حتى صار في آخرة الحال شيخ وقته في الفنون لا نظير له. ويضيف أحمد بابا قائلاً: لازمته أكثر من عشر سنين فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل، وفرعي ابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير وختمتهما عليه. أما خليل فمراراً عديدة نحو عشر مرات أو ثمان بقراءتي وقراءة غيري. وحضرت عليه التوضيح كذلك لم يفتني منه إلا يسير من الوديعة إلى الأقضية، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم وحضرته كثيراً في المنتقى والمدونة بشرح المحلى ثلاث مرات، وألفية العراقي في علم الحديث مع شرحهما، وحضرتهما عليه مرة أخرى، وختمت عليه تلخيص المفتاح مرتين وتلخيص المفتاح بمختصر السعد، وصغرى السنوسي مع شرح الجزيرية، وحضرت عليه الكبرى وشرحها، وقرأت عليه حكم ابن عطاء الله مع شرح زروق عليه، ونظم أبي مقرعة والهاشمية في التنجيم مع شرحها ومقدمة التاجوري فيه ورجز المغيلي في المنطق، والخزرجية في العروض بشرح الشريف، والدماميني، وكثيراً من تحفة الحكام لابن العاصم في الأحكام مع شرح ولده عليها، وسمعت بقراءته هو كثيراً من البخاري ومسلماً كله، ودولاً من مدخل ابن الحاج، وبقراءة غيري دروساً من الرسالة والألفية وغيرهما، وسمعت بلفظه جامع معيار الونشريسي كاملاً، وهو مجلد كبير، ومواضع آخر منه، وباحثته كثيراً في المشكلات وراجعته طويلاً في المهمات، وبالجملة فهو شيخي وأستاذي ما انتفعت بأحد انتفاعي به وبكتبه رحمه الله[1].

(١) نيل الابتهاج ص ٣٤١ ـ ٣٤٢، وتاريخ السودان ص ٤٥ ـ ٤٦.

قال أحمد بابا: وأجازني جميع ما يجوز له وعنه وكتب لي بخطه في ذلك. وأوقفته على بعض تأليفي وتقاييدي فكتب لي بخطه الثناء والموافقة بل كتب عني أشياء من أبحاثي لحسن نيته. وسمعته ينقل في دروسه بعضها لإنصافه وتواضعه وقبوله الحق حيث تعين، وكان حاضراً معنا يوم الكائنة العظمى علينا بتنبكت فنجاه الله تعالى. فكان آخر عهدي به ثم بلغني وفاته بها يوم الجمعة من شوال في عام اثنين وألف رحمه الله تعالى، وأخبرني أن مولده سنة ثلاثين وتسعمائة. وله تعاليق وحواش نبه فيها على هفوات لشراح خليل وغيره، وتتبع شرح التتائي الكبير من أوله إلى آخره فبين ما فيه من السهو نقلاً وتقريراً في غاية الإفادة، وقد جمعتها في عدة كراريس تأليفاً مستقلاً، وله فتاوى عديدة. انتهى ما كتبه أحمد عن شيخه[1].

وعندما حلت نكبة الغزو المراكشي بعلماء تمبكت عامة وأسرة أقيت خاصة كان هو النبراس الباقي في تمبكت لينير للناس فيها طريق الحق والهدى وقد وقف موقفاً شجاعاً أمام الباشا المراكشي حين طلب منه أن يكتب شهادته زوراً وكذباً ضد من أسر أو قتل من العلماء والفقهاء في تمبكت ليتخذها حجة على إدانتهم بالمروق عليه وتعاونهم مع السلطان نوح عاهل سنغاي المناهض للاحتلال، وأبى الشيخ محمد أن يفعل ذلك ولو قطعت رأسه عن جسده. وفي النهاية عفى عنه الباشا إكباراً منه لنبل موقفه وروعه، وأصبح بعد ذلك محل تقدير واحترام الباشا، وصاحب شفاعة لكثير من أهل تنبكت[2]. وهذا العالم لا يزال عالقاً في أذهان الأفريقيين في غرب أفريقيا وآثار مدرسته باقية في تمبكت لشدة تأثيره على أهلها.

٢٦ ـ القاضي محمود كعت وأسرته:

---

(١) نيل الابتهاج ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ وتاريخ السودان ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٢) انظر قصة موقفه مع الباشا في تاريخ الفتاش ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

هو القاضي محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت الكرمني داراً والتنبكتي مسكناً الوعكري أصلاً. ولد في منطقة كورما غرب غاو وعاصر أمير المؤمنين الحاج أسكيا محمد الذي حكم سنغاي من ١٤٩٣ ـ ١٥٢٨م وسكن في تمبكت وتلقى العلم على علمائها وفقهائها وبرع في الأدب والفقه وتقلد منصب القضاء وكان زاهداً ورعاً أحبه أسكيا محمد وقربه إليه وجعله من مستشاريه[١].

اختلف في تاريخ ميلاده إلا أنه عاش في أيام أسكيا الحاج محمد وحج معه سنة ١٤٩٥ م في أواخر القرن التاسع الهجري أو في ٩٠٢ هـ وقد ذكر أنه كان معه في حجه وقال في أثناء ذكر من معه من العلماء والأمراء والأعيان: (والمبتلي بالتأليف أنا محمود كعت)[٢].

وكان القاضي الفقيه محمود كعت وأبناؤه: القاضي الفقيه: إسماعيل بن محمود كعت[٣] والفقيه يوسف بن محمود كعت[٤] محمد الأمين بن محمود كعت، وحفيده ابن المختار وهو ابن بنت القاضي محمود كعت صاحب التاريخ وهؤلاء من أسرة كعت من أعلام العلماء واشتهر الخمسة المذكور أسماؤهم بأنهم أعلام المؤرخين السودانيين وقد ألف القاضي محمود كتابه (تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظام الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار) خلال القرن السادس عشر الميلادي وحسبما تذكره بعض المصادر أنه ولد سنة ١٤٦٨م وابتدأ كتابة مؤلفه وهو في سن الخمسين وتوفي سنة ١٥٩٣م الموافق ١٠٠٢هـ، وعلى هذا

---

(١) انظر ما تقدم في مقدمة كتابه تاريخ الفتاش ص ١ ـ ١٦ وما بعدها وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٥٣١ ومملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ١٦٠ ـ ١٦١.

(٢) تاريخ الفتاش ١٦.

(٣) تاريخ الفتاش ص ٧٥ وص ١١٦.

(٤) الفتاش ١٤٢ وفي أماكن متفرقة جاء ذكر هؤلاء الفقهاء من أسرة كعت.

الاعتبار يكون كعت قد حضر احتلال المغاربة بلاد السودان، وما سبق ذلك من أزمات سياسية بين البلدين، مما يعطي كتابه ميزة خاصة، ولكن الحوادث التي احتواها الكتاب تجتاز عمره بست سنوات مما يبعث على الاعتقاد بأن الكتاب قد أتمه بعض أحفاده بعد وفاته[1].

وقد جاء في مواضع متفرقة من الكتاب ما يدل على أن حفيده ابن المختار هو الذي كمل الكتاب معتمداً في ذلك على بعض مذكرات أخواله فقد قال في ص ١٤٢: (ورأيت بخط خالنا الفقيه يوسف كعت بن ألفع محمود كعت رحمهما الله أنه جاءه مرسول الأمير...) ويقول في ص ١٠٨ ومن ذلك ما رويت عن خالي يرويه عن أبيه ألفع كعت...) وقد كرر مثل هذا في مواضع من الكتاب ويقول في موضع آخر: (وقال القاضي إسماعيل كعت...)[2] وهذا يدل على أن القاضي محمود كعت قد حرر أجزاء من الكتاب وترك أجزاء لم يحررها مباشرة بل تركها كمذكرات في أيدي أبنائه وقام بتحريرها أحد أحفاده بعد أن ضمها إلى مذكرات أخرى لبعض أبناء القاضي محمود. والله سبحانه وتعالى أعلم[3]. وقد بدأ محمود كعت كتابه بالحديث عن بداية عهد محمد أسكيا وحجه فأثنى عليه كثيراً ووصفه بالعدل والصلاح وإقامة الدين في حين أنحى باللائمة على سلف سنى على ووصفه بالخروج على الدين... وختم حديثه بالكلام على تمبكت حين غزاها المغاربة وما لحقها من الدمار ونفي العلماء وقتل بعضهم وما حل بالسنغاي من النكبات التي حولت البلاد كلها إلى فوضى وتفشي الجهل والفساد في

---

(١) انظر ص ٧٥ و ص ١١٦ وص ١٤٢ من الفتاش نفسه، ومملكة سنغاي ص ١٦٠ ـ ١٦١.

(٢) انظر ص ٧٥ ـ ١٠٨ ـ ١٤٢...

(٣) إن صح هذا يكون حفيد محمود كعت هذا ابن بنته المدعو ابن المختار قد استخدم الوثائق التي تركها أسرة كعت وبدأها جده محمود وأبناؤه ليخرج لنا كتاب الفتاش.

الدين والدنيا[1]. والقاضي محمود كعت من الذين ساهموا في إرساء قواعد النهضة الثقافية الإسلامية المزدهرة في السودان الغربي في عهد حكم آل أسكيا لأمبراطورية سنغاي ومن العلماء المشهود لهم بالكفاءة العلمية في التعليم والإصلاح.

وقد كان محمود كعت من العلماء المرموقين في تمبكت، وكان من المقربين لدى السلاطين مما ساعده على الاهتمام بكتابة تاريخ بلاده وإيراد أخبار مفيدة عن كثير من الأحداث التي وقعت في صدر دولة سنغاي المترامية الأطراف إلا أنه على الرغم من اتساع عنوان الكتاب فإنه لم يشتمل على تسجيل كل الحوادث الهامة عن دولة سنغاي.

٢٧ ـ عريان الرأس المتوفى سنة ١٠٢٠هـ[2]؛

وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن موسى بن عريان الرأس وهو من فقهاء تنبكت الصالحين ـ كما يقول السعدي ـ وكان سخياً كريماً خرج من ماله كله صدقة لله[3] يتصدق على الفقراء والمساكين، واشترى كثيراً من الأرقاء أعتقهم لوجه الله، وكان بيته مفتوحاً لكل من جاءه يدخل بلا استئذان يأتيه الناس من كل مكان، ومن أصدقاء الفقيه أحمد بن الحاج أحمد والد أحمد بابا، ومن تلاميذ الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود. ويسميه أهل سنكري بـ محمد ولد أد علي[4].

٢٨ ـ من الشيوخ الذين لهم تأثير في مدرسة تمبكت الثقافية:

---

(١) تاريخ الفتاش ص ١٧٥ وما بعدها.
(٢) تاريخ السودان ص ٥٦.
(٣) المرجع السابق ص ٥٢ وما بعدها.
(٤) تاريخ السودان ص ٥٢ ـ ٥٣.

الشيخ الأمين بن أحمد ت ١٠٤١هـ شيخ عبد الرحمن السعدي صاحب تاريخ السودان.

وذكر عبد الرحمن السعدي أن شيخه الأمين أحمد قد بز أقرانه ومعاصريه من علماء تمبكت في المعرفة، وكان مجتهداً صاحب تخصصات متعددة: نحوي تصريفي لغوي، له حظ في معرفة الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وكان من علماء تمبكت البارزين الذين ساهموا بقسط وافر من العلم في النهضة الثقافية في مدينة تمبكت في السودان الغربي بصفة عامة. توفي رحمه الله في شوال سنة ١٠٤١هـ وكان مولده سنة ٩٥٧هـ[١].

٢٩ ـ عبد الرحمن السعدي أو السعيدي ١٠٠٤ ـ ١٠٦٦ هـ ١٥٩٦ ـ ١٦٥٥م:

هو عبد الرحمن بن عبدالله بن عمران بن عامر السعدي. وقد لقب نفسه بالسعيدي في موضعين من كتابه فقال في ص ٢١٣: وفي ليلة الأربعاء ليلة الفطر... ولد جامع هذه الكراريس عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعيدي. وفي ص ٢١٦ قال: وفي أواخر هذا العام توفي عمنا بابا عامر بن عمران السعيدي. وقد اتفقت النسختان من كتاب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور على السعيدي[٢]. وإنما جاءت كلمة (السعدي) في صدر كتابه المطبوع تحقيق هوداس[٣] وينتمي السعدي إلى أسرة من الفقهاء في تمبكت حيث كان مولده وقد ولد بعد وفاة القاضي والمؤرخ محمود كعت بثلاث سنوات[٤]. وقد كان السعدي من العلماء ومن بيت علم وجاه تولى إمامة جامع سنكري سنة ١٠٣٦هـ، وألف كتابه تاريخ السودان.

---

(١) انظر تاريخ السودان ص ٥٥ ـ ٥٦ وص ٢٤٧.

(٢) انظر ص ٢١٣ وص ٢١٦ من تاريخ السودان. وانظر فتح الشكور ص ١٧٦.

(٣) انظر عنوان الكتاب: تاريخ السودان الصفحة الأولى.

(٤) مملكة سنغاي ص ١٦١.

وقد شهد الاحتلال المراكشي لأمبراطورية سنغاي الإسلامية ومدينة تنبكت فجاءت حوادث ذلك العهد مفصلة في كتابه في حين جاءت حوادث الفترة السابقة مختصرة، وقد كان لكتاب السعدي تاريخ السودان: الفضل الأكبر في إبراز صورة الحضارة والثقافة الإسلاميتين في السودان الغربي عامة ومدينة تمبكت وجنى بصفة خاصة، فهو مؤرخ أمبراطورية سنغاي الإسلامية أولاً وأمبراطورية مالي الإسلامية ثانياً[1].

والمتتبع لهذا الكتاب يدرك مدى أهميته في تاريخ التعليم والفكر الإسلاميين وما وصلت إليه امبراطورية سنغاي من الازدهار الثقافي والعلمي والتجاري في ذلك العهد وما قام به علماء غرب أفريقيا من حركة علمية مباركة في جميع أنحاء السودان الغربي. وقد استهل السعدي في مقدمة كتابه بذكر الأسباب التي حدت به إلى التأليف فقال: ولما رأيت انقراض ذلك العلم ـ أي خراب تمبكت بنفي علمائها إلى مراكش ـ ودروسه. وذهاب ديناره وفلوسه، وأنه كبير الفوائد كثير الفرائد لما فيه من معرفة المرء أخبار وطنه وأسلافه وطبقاتهم وتواريخهم ووفياتهم، فاستعنت بالله سبحانه في كتب ما رأيت من ذكر ملوك السودان أهل سنغاي وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك، وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطنوها وغير ذلك إلى آخر الدولة الأحمدية الهاشمية العباسية، سلطان مدينة الحمراء مراكش...[2] وبدأ بعد ذلك بالحديث عن العلماء والمصلحين في أمبراطورية سنغاي الإسلامية وأرجع أسباب ضعف سنغاي في آخر أمرهم واستيلاء المراكشيين على سنغاي إلى سوء الأخلاق وفساد سيرة الحكام بين الرعية. وهذه الأسباب ذكرها كعت في تاريخ الفتاش قبله.

---

(١) راجع كتاب تاريخ السودان ص ٢ إلى ٦٥ وما بعدها.

(٢) انظر تاريخه ص ٢.

والقسم الأكبر من الكتاب خصصه السعدي للحديث عن حكم الباشوات من المغاربة في سنغاي. ولذا يعتبر كتابه من أوفر المراجع في بلاد السودان في تلك الفترة[1].

وقد قسم السعدي كتابه إلى ثمانية وثلاثين باباً من الباب الأول إلى الرابع خصصه للحديث عن مالي وبداية سني علي ملك سنغاي والباب الخامس والسادس خصصها للحديث عن مدينة جنى وعلمائها وصلحائها، ومن الباب السابع حتى الحادي عشر لمدينة تمبكت وعلمائها والحركة العلمية والثقافية المزدهرة فيها ورحلات العلماء من وإليها.

والباب الثاني عشر عن حياة سني علي ملك سنغاي وقوته واستيلائه على سائر البلدان وعلى تمبكت.

ومن الحادي والعشرين حتى السابع والعشرين خصصها للحديث عن ملوك الأساكي وعدلهم ونشرهم للإسلام والعلم وتشجيع العلماء.

وبقية الأبواب إلى آخر الكتاب في أخبار احتلال المراكشيين لبلاد السودان وما حل بالبلاد من الكوارث واندراس العلم وتفشي الجهل والظلم تحت حكم الباشوات من المغاربة. وأما أسلوب الكتاب فهو مفكك وعباراته غير مستقيمة غالباً وعدم ارتباط الأفكار واستعمال التراكيب الضعيفة والكلمات العامية أحياناً، وهذا يدل على أن الحركة العلمية والثقافية والأدبية واللغوية التي ازدهرت في عهد الأسكيين آلت إلى الضعف والتفكك وأصابها ما أصاب البلاد والعلماء من جراء الغزو المغربي الذي قضى على معالم الثقافة الإسلامية في السودان آنذاك[2]. إن هؤلاء الأعلام الذين ذكرنا تراجم بعضهم من العلماء والفقهاء أثروا

---

(١) راجع تاريخ السودان.

(٢) انظر تاريخ السودان وتاريخ الفتاش ومملكة سنغاي وتاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا لمهدي رزق الله.

الحياة العلمية والثقافية في السودان الغربي كله وفي تمبكت بصفة خاصة ولأصحاب هذه التراجم وغيرهم ممن لم يسع الوقت لذكر تراجمهم أهمية بالغة في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية في تلك البلاد.

أهم النتائج التي نستنتجها من تراجم هؤلاء الأعلام حول تطور الحركة العلمية والثقافية في السودان الغربي في عهد امبراطورية سنغاي ومالي

١ ـ إن الحركة العلمية والثقافية كانت على درجة عالية من الازدهار بمقاييس ذلك العصر في تمبكت وبقية المراكز الثقافية في السودان الغربي وخاصة في عهد أمبراطورية سنغاي وأنها كانت تشبه في جميع جوانبها ما كان موجوداً في البلاد الإسلامية الأخرى في المغرب ومصر والحجاز والشام، من تضلع الأساتذة في أنواع المعارف الموجودة في ذلك الوقت وحدبهم على التدريس وإقبال جموع الطلبة على الأخذ عن الفقهاء والعلماء.

٢ ـ إن المستوى الثقافي والعلمي والفكري لدى الفقهاء والعلماء في تمبكت لا يقل عن المستوى الذي كان سائداً آنذاك لدى فقهاء العالم الإسلامي في المشرق والمغرب. وهناك شاهدة على ذلك ورواية مشهورة متواترة تدل على رسوخ قدم علماء تمبكت في العلم والتعليم الإسلامي: وهي أن الفقيه عبد الرحمن التميمي المكي الذي استقدمه السلطان منسى موسى معه أثناء عودته من حجته من الحجاز ليقوم بالتعليم والتدريس في جامعة تنبكت ومعاهدها[1] لما وصل إلى مدينة تمبكت وسكنها وجدها حافلة بالفقهاء والعلماء الذين فاقوه في العلم فاضطر ليرحل إلى فاس. وتفقه هناك ثم رجع إلى تمبكت مرة أخرى ليمارس التدريس. وكان الفقيه عبد الرحمن التميمي من العلماء

(١) تاريخ السودان ص ٥١.

المشهود لهم بالكفاءة العلمية العالية. وكان العلامة الفقيه يحيى التادلسي يقول لطلبة جامعة سنكري يا أهل سنكري كفاكم في العلم سيدي عبد الرحمن التميمي[١]. وقد أورد الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد أدلة في كتابه ـ التربية في السودان ـ[٢] على تفوق علماء تنبكت على علماء سنار في مجال العلم والمعرفة فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر الهجريين، والخامس عشر والثامن عشر الميلاديين، وأتى بنماذج على هذا التفوق في عدة مجالات تخصصية[٣].

٣ ـ فيما يتعلق بتطور الحركة الفكرية بالسودان الغربي في أيام السنغاي نلاحظ أن الأبحاث التي كانت نشيطة هي العلوم الشرعية واللغوية وهذه العلوم ظلت تتصف بالاستيعاب دون أن تتجاوزه إلى الإنتاج المستقل إلا أنه إذا كان قارىء هذا التراجم يخرج بنتيجة وهي أن أصحابها في الغالب الأعم كانوا مرددين لما قاله من قبلهم حيث انحصرت معلوماتهم في المتون والشروح والحواشي والتعاليق ولم يكن لهم إنتاج مستقل في الأغلب فإن الذنب في ذلك ليس ذنبهم وحدهم ـ إن صح هذا التعبير ـ وإنما الذنب كان ذنب العصر كله حيث اتسمت الثقافة الإسلامية العربية فيه في الشرق والمغرب على حد سواء بالجمود والركود والتقليد وتكرار ما قيل من قبل، إلا أن قارىء هذه التراجم سوف لا ينسى فضل هؤلاء العلماء السودانيين المرددين ما قاله من قبلهم لمساهمتهم مساهمة فعالة في ازدهار الثقافة الإسلامية العربية وقاموا بجهد كبير في رفع مستوى التعليم الإسلامي إلى أعلى مستوى موجود في ذلك العصر. على رغم عيشهم في مناطق نائية ومنعزلة عن مراكز الثقافة الإسلامية الكبرى في المغرب وتونس والقاهرة والحجاز وبلاد الشام والعراق. ولا يستطيعون

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٣) وانظر تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا من القرن ٨ ـ ١٣هـ.

الوصول إليها إلا بشق الأنفس. فجزاهم الله ثواباً جزيلاً لما قدموه في سبيل إعلاء كلمة الله وخدمة دينهم وأمتهم.

٤ ـ اعتنى علماء وفقهاء تمبكت بجمع الكتب والمخطوطات وكانوا يبذلون الغالي والنفيس في سبيل اقتنائها شراء ونسخاً حتى اشتهرت تمبكت عالمياً ببيع الكتب والمخطوطات وأصبح التجار عن طريقها يتحصلون على أكبر ربح على الإطلاق ربحاً يفوق بكثير ما يتحصلونه من السلع الأخرى.

وكانت جامعة سنكري قد تمتعت بسمعة كبيرة جداً وتجاوزت سمعتها حدود بلاد السودان، كما أن شهرة أساتذتها تجاوزت حدود السودان إلى شمال أفريقيا والمغرب ومصر، حتى دعي بعضهم للتدريس في جامعة الأزهر وفاس[١]. وقد ساد في هذا العصر فن الخطوط وعرف الأفريقيون الورق، وكان عند الملك داود ملك سنغاي مكتبة ضخمة ونساخ ينقلون له المخطوطات، وقد بلغ من حب هذا الملك للكتب، أن اشترى قاموساً بمبلغ ثمانين مثقالاً من الذهب[٢].

الحركة الثقافية والفكرية في مدينة جنى[٣] من القرن السادس حتى القرن الحادي عشر الهجريين

ومدينة جنى هي من أهم المراكز الثقافية الإسلامية في السودان

---

(١) مملكة سنغاي ص ١٣٨.

(٢) المثقال الذهبي يساوي ستة غرامات وكان نقداً رائجاً في تلك البلاد أيام ازدهار أمبراطورية سنغاي. انظر حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في أفريقيا الغربية ص ١٦٣ لنعيم قداح وتاريخ السودان والفتاش ص ٩٤.

(٣) ذكر بعض المؤرخين ثلاثة آراء حول اسم جنى فالأول يقول؛ جنى هو أصل الكلمة وقيل غينيا مشتقة من غانا ميناء قديم على ضفاف نهر النيجر شمال مدينة فاو كادوس. وقيل غنيا هي غانة ويقول المؤرخ الفرنسي: والأصح في هذا الاسم أن يقال: ديني قلت: والأصح أن اسم هذه المدينة: جنى وهو الاسم الذي ورد في المصادر الأصلية التي عليها الاعتماد مثل نيل الابتهاج لأحمد بابا وتاريخ السودان، وتاريخ الفتاش. وهذا الاسم هو المشهور الآن.

الغربي[1]، وقد ازدهرت الثقافة الإسلامية في مدينة جنى منذ وقت مبكر وتوافد عليها العلماء وأسسوا فيها مساجد واتخذوها مدارس لتعليم الأهالي القرآن والعلوم الإسلامية واللغة العربية وعلومها. فازدهرت فيها الثقافة ازدهاراً بعيد المدى يضاهي مدينة تمبكت[2]. وتقع مدينة جنى بموقع ممتاز في جزيرة وسط المياه على أحد روافد نهر النيجر وتقوم على هضبة صخرية سهل فسيح تغطيه المياه في الخريف ثلاثة أشهر من فيضان نهر النيجر[3]. وهي على مسيرة مائتي ميل إلى الجنوب الغربي من تنبكت. وهي مدينة قديمة جداً قبل تمبكت في التأسيس، وربما كان تأسيسها قبل القرن الأول من هجرة المصطفى ﷺ أو بعد ذلك والله أعلم. وفي القرن الثاني عشر الميلادي أصبحت جنى ثالث مدينة من حيث الأهمية التجارية في السودان الغربي كله، بعد كل من تمبكت وغاو[4].

والذي يهمنا من جوانب هذه المدينة هو الجانب الثقافي وما وصلت إليه من تطور ثقافي وفكري خلال قرون الازدهار العلمي والثقافي في السودان الغربي أما الجانب الثقافي لهذه المدينة فقد كانت تحتل الدرجة الثانية في الأهمية الثقافية والفكرية بعد مدينة تمبكت لذلك كان سلاطين آل أسكيا يهتمون بها ويعينون لها قضاة صالحين ويساعدون القاضي على بناء مأوى لطلاب العلم وبناء المساجد، وكان فيها كثير من العلماء والفقهاء وطلاب العلم[5]. وقد وصفها السعدي

---

(١) تاريخ السودان ص ١١ ـ ١٢.

(٢) انظر تاريخ السودان ص ١١ ـ ١٢.

(٣) وصف أفريقيا ص ٥٢٨ وتاريخ السودان ص ١٢.

(٤) مملكة سنغاي ص ١٠٦. ودولافوس ـ أعلى السنغال والنيجر ص ٢٧٧، وتاريخ السودان ص ١١ ـ ٢.

(٥) انظر تاريخ السودان ص ١٦ ـ ١٧.

بالخير والبركة وكثرة العلماء فقال: وهي مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة جعل الله ذلك في أرضها خلقاً وجبلة، وطبيعة أهلها التراحم والتعاطف والمواساة...[1] ويذكر السعدي أن هذه المدينة ابتدأت في الكفر في أواسط القرن الثاني من الهجرة، ولعل سائلاً يسأل عن أي دين كانت هذه المدينة قبل أن تبدأ في الكفر. على حد كلام السعدي أكانت على اليهودية أم على النصرانية؟ والله أعلم. وهاتان الديانتان كانتا موجودتين في المنطقة قبل الإسلام وخاصة اليهودية. ولعل السعدي يقصد أن مدينة جنى هذه قد بدأت منذ نشأتها في منتصف القرن الثاني الهجري كافرة، وليست كمدينة تمبكت التي نشأت على الإسلام. وهذا هو مقصوده ـ والله أعلم ـ لأن بعد ذلك شرع في ذكر تاريخ دخولها في الإسلام[2]. وعلى هذا يكون تأسيس هذه المدينة في القرن الثاني الهجري ولكن الروايات المحلية تدل على أنها كانت قبل ذلك بالتاريخ، والله أعلم بالحقيقة.

ويبدو مما ذكره السعدي وغيره في إسلام ملك هذه المدينة: أن الثقافة الإسلامية كانت قد تسربت إلى هذه المدينة قبل أن يدخل ملكها في الإسلام وازدهرت فيها الثقافة وانتشر الإسلام بين أهلها، وعندما أراد ملكها أن يسلم كانت تعج بعلماء المسلمين وكان تأثير هؤلاء العلماء على الأهالي كبيراً جداً ويلاحظ ذلك من ضخامة عدد العلماء الذين جمعهم الملك عندما أراد الدخول في الإسلام، فقد ذكر السعدي أن سلطان هذه المدينة واسمه ـ السلطان كنبر ـ أسلم في القرن السادس الهجري، وأنه عندما عزم على الدخول في الإسلام أمر بحشر جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة فحصل منهم أربعة آلاف ومائتا عالم فأسلم على أيديهم[3]. قلت: ومهما يكن في هذا العدد

---

(١) تاريخ السودان ص ١١.
(٢) المرجع السابق ص ١٢.
(٣) المرجع السابق ص ١٢ ـ ١٣.

الذي ذكره السعدي من مبالغة فإنه يدل على وجود أهل العلم من العلماء والفقهاء بكثرة في هذه البلاد، ويدل أيضاً على أنه لم يصلنا من آثارهم إلا قليل مما ذكره أحمد بابا والسعدي وكعت. ولعل الفتن التي سببتها حروب الدمار التي شنها المراكشيون على بلاد السودان هي التي قضت على آثار أولئك العلماء، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وعند إعلان ملك جنى كنبر إسلامه اشترط على العلماء أن يدعو للمدينة بثلاث دعوات قال السعدي: وأمرهم أن يدعوا الله تعالى بثلاث دعوات لمدينة جنى وهي:

١ ـ أن كل من هرب إليها من وطنه ضيقاً وعسراً أن يبدلها الله له سعة ويسراً حتى ينسى وطنه ذلك.

٢ ـ وأن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها.

٣ ـ وأن يسلب الصبر من الواردين إليها للتجارة في ذات أيديهم لكي يملوا منها فيبيعونها لأهلها بناقص الثمن فيربحون بها. فقرأوا الفاتحة على هذه الدعوات الثلاثة فكانت مقبولة. وهي كائنة إلى الآن بالمشاهدة والمعاينة، وقد استجاب الله تعالى للسلطان كنبر ودعوات العلماء لتلك المدينة. وقد أكد السعدي أن آثار تلك الدعوات كائنة حتى في أيامه[١]. وكان يعيش في القرن السادس عشر الميلادي بينما تم إسلام أهل جنى كلهم والملك والدعوات الثلاثة في القرن الثاني عشر الميلادي. وذكر السعدي أن الملك عندما أسلم قام بهدم القصر الملكي الذي كان يسكنه (دار السلطنة) وبنى مكانه مسجداً جامعاً لأهل جنى وشيد قصره الملكي بقرب المسجد الجامع[٢].

---

(١) تاريخ السودان ص ١٣.

(٢) المرجع السابق ص ١٣.

قلت وهذه الرواية التي يرويها السعدي في قصة إسلام ملك جنى وما جمعه من العلماء عند عزمه على الدخول في الإسلام وما يلي ذلك من أعمال خيرية قام بها الملك كل ذلك يفيد بمالا يقبل الشك أنه كان هناك مجتمع إسلامي قوي في جنى وأن في هذا المجتمع الإسلامي عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء، ومجتمع هذا شأنه لا بد أن يكون عريقاً في الإسلام منذ زمن بعيد، ويستنتج من ذلك أن الذين أسلم في القرن السادس الهجري هو الملك وحاشيته وبعض الرعية، وأما السواد الأعظم من السكان فقد دخلوا في الإسلام قبل القرن السادس الهجري بكثير. وهذا يوضح لنا مكانة جنى كمركز ثقافي تعليمي هام جداً في السودان الغربي منذ وقت مبكر قبل إسلام ملكها ثم ازدهرت الثقافة الإسلامية فيها وقوي مركز الإسلام رسمياً وذاعت شهرة علمائها بعد إسلام الملك كنبر وبناء مسجد جامع للصلاة والتعليم.

وقد ظلت شهرة مدينة جنى المزدوجة بالدين والعلم والثقافة الإسلامية وكثرة العلماء الوافدين مستمرة حتى بداية الاحتلال المراكشي لها، ونافست تمبكت في هذه النواحي.

تاريخ الحكم في مدينة جنى وحركة العلم والثقافة فيها تحت ظل الحكومات التي مرت عليها

وقد ظل الحكم في جنى في بداية الأمر ينحصر في نطاق السكان المحليين من القبائل وقاموا بنشاط كبير في نشر الثقافة الإسلامية في المدينة وبنوا بعض المساجد ومهدوا السبل أمام العلماء للقيام بالتدريس في تلك المساجد.

ثم استولى عليها ماري جاظة الذي حكم مالي من ١٢٣٠ ـ ١٢٥٠م المؤسس الحقيقي لأمبراطورية مالي[١]. وضمها إلى مالي ومن

---

(١) دولة مالي الإسلامية ص ١٩ والإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا ص ١٥٤ ـ ١٥٥ د/ عبد الرحمن زكي.

ثم أصبحت أهم أسواق قبائل الغولة والولوف والسركولة وأهالي تكرور الغربي وعرفت بعمل القماش[١].

ثم استولى عليها ملك سنغاي سني علي سنة ١٤٧٣م في القرن التاسع الهجري وضمها إلى امبراطورية سنغاي ضماً فعلياً وظلت تحت حكم سنغاي إلى أن غزا المراكشيون السودان واستولوا عليها في أواخر القرن العاشر أو أوائل الحادي عشر الهجري[٢]، وقد ازدهرت العلوم والثقافة الإسلامية في مدينة جنى تحت حكم سنغاي في عهد حكم آل أسكيا وتعاظم سكانها وكثر التجار بها وزخرت بالعلم وبالعلماء وازدهر فيها التعليم والثقافة ازدهاراً بعيد المدى حتى دانت تمبكت في الأهمية، واستمرت معاهد العلم والثقافة ومساجدها التي تحولت إلى معاهد للعلم تؤدي دورها في خدمة العلم والثقافة الإسلامية حتى غزتها جيوش مراكش فقضت على كل شيء فيها من العلم والعلماء وفقدت مركزها الثقافي والتجاري وحل بها ما حل بتمبكت[٣].

وكانت مدينة جنى أمداً طويلاً على جانب كبير من الأهمية الثقافية والاقتصادية وقد نعمت بالطمأنينة والأمن تحت حكم سنغاي وتضاعف نشاطها التجاري ورسخت قدمها في الثقافة الإسلامية، وكان أسكيا محمد أول من عين القضاة فيها للفصل بين الناس وفق الشريعة الإسلامية[٤]. وذكر السعدي أن أول قاض عينه أمير المؤمنين أسكيا

---

(١) الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا ص ١٥٤ واحتفظت القيادات المحلية بالحكم تحت سلطة مالي.

(٢) التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا ص ٢٢٨ ومملكة سنغاي ١٠٧ وانظر التأثير الإسلامي ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥، وتاريخ السودان ص ١١ ـ ٢٠ والفتاش وتذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان لمؤلف مجهول ولكنه من تمبكت ثم نسي ذكر اسمه أو من النساخ.

(٣) المراجع السابقة.

(٤) تاريخ الفتاش ص ٥٩ وتاريخ السودان ص ١٨.

محمد في جنى هو الفقيه فودي محمد سانو الونكري وهو أول قاض يقضي فيها بين الناس بالشرع، وقبل لا يتفاصل الناس إلا عند الخطيب بالصلح. . .[1].

وفي هذا العهد أصبحت جنى مركزاً إسلامياً وعلمياً وثقافياً مباركاً. وقد وصفها السعدي بكثرة العلماء الواردين إليها من غير أهلها وقال: وقد ساق الله لهذه المدينة المباركة سكاناً من العلماء والصالحين من غير أهلها من قبائل شتى وبلاد شتى. ثم ذكر عدداً كبيراً منهم ممن لهم دور كبير في ازدهار الثقافة الإسلامية فيها[2].

الثقافة الإسلامية في جنى وفقهاؤها:

أشهر معهد لتعليم الثقافة الإسلامية وسائر العلوم الإسلامية والعربية هو المسجد الجامع الذي بناه سلطان جنى كنبر في القرن الثاني عشر الميلادي وقد تقدم ذكره. وهذا المسجد منذ تأسيسه أصبح مركزاً ومعهداً للدراسات الإسلامية واللغوية وكان يضاهي معاهد تمبكت[3].

وكانت بجنى المدارس لتعليم القرآن الكريم ومبادىء الدين وبعض المعاهد التعليمية المنفصلة عن المسجد إلى جانب التعليم والتدريس في مساجد المدينة كمعاهد تعليمية، وعندما دخل الاستعمار الفرنسي كانت فيها خمس عشرة مدرسة ـ غير الكتاتيب لتعليم الصغار القرآن الكريم ـ وكثير من الكتب الدينية والعربية[4].

---

(١) تاريخ السودان ١٨.

(٢) تاريخ السودان ص ١٦.

(٣) انظر تاريخ السودان ص ١٢ ـ ١٣ والتعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا من القرن الثامن حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجري ٢٣٠ وما بعدها.

(٤) وهذه المدارس والمعاهد والمكتبات في جنى عند دخول الاستعمار لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم، وقد حدثنا عن ذلك بعض الشيوخ الذين شاهدوا الاستعمار الفرنسي عند استيلائه على تلك المدينة وما ارتكبوه ضد الدين والتعليم الإسلامي واللغة العربية.

وقد ذكر السعدي ـ كما تقدم ـ عدداً كبيراً من الفقهاء والعلماء الذين يقومون بنشر الإسلام بين الناس في تلك المدينة وتعليمهم الثقافة الإسلامية عند إسلام سلطانها ولكن السعدي لم يسجل لنا جميع أسماء هؤلاء العلماء والفقهاء الذين قاموا بهذا الدور العظيم في جنى، ولعل السبب يرجع إلى البعد الزمني بين عصره وعصر أولئك العلماء، لأنه عاش في القرن الحادي عشر الهجري (السادس عشر الميلادي) وعاش العلماء الذين اكتفى بذكر عددهم قبله بحوالي خمسة قرون ونيف.

وأما علماء جنى الذين زمنهم قريب من زمن السعدي فقد أعطى معلومات كثيرة عن بعضهم وأسماء العلماء الذين هاجروا إلى مدينة جنى منذ منتصف القرن التاسع، وتعرض لسيرة نفر قليل منهم[١].

أشهر العلماء والفقهاء في مدينة جنى الذين أثروا الحياة العلمية والثقافية في المنطقة ولهم دور بارز في ازدهار الثقافة الإسلامية في جنى

وهم:

١ ـ الفقيه: مور كنكي:

وهو أول من ذكره السعدي من العلماء الوافدين على جنى كعالم بارع في تدريسه ومتمكن من معلوماته[٢].

وهو مور مغ كنكي رحل من قريته إلى كابرا لتلقي العلم من علمائها ثم رحل إلى جنى بعد أن تلقى تعليمه في كابرا[٣]. وذلك في منتصف القرن التاسع الهجري كما يقول السعدي[٤]. أي في فترة تولي

---

(١) انظر تاريخ السودان ص ١٢ ـ ١٣ ـ ١٦ والإسلام في نيجيريا ص ٥٧.

(٢) تاريخ السودان ص ١٦.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق في الصفحة نفسها.

أسكيا موسى بن محمد أسكيا أمير المؤمنين الحكم ١٥٢٨ ـ ١٥٣١م/ ٩٣٥. ٩٣٨هـ ولكن الذي يبدو من كلام السعدي نفسه أنه كان موجوداً في جنى قبل التاريخ الذي ذكره أي قبل تولي أسكيا موسى بن أمير المؤمنين الحاج محمد أسكيا عرش سنغاي والدليل على ذلك ما ذكره السعدي من أن الشيخ الفقيه مور كنكي خرج مع طلبته من جنح لمقابلة أسكيا موسى أثر عودته من حملته ضد أخيه عثمان الذي كان ينازعه السلطة بعد عزل موسى والده أسكيا محمد من الحكم، وكان سبب خروج الفقيه مور مغ لمقابلة موسى: هو طلب العفو عن قائدين من الذين كانوا في صف عثمان. قال السعدي: تلقاه الفقيه مور مغ كنكي مع الطلبة خرجوا من جنج فسلم عليه ودعا له على عادتهم، ثم قال له الشيخ نطلب منك في حق الله تعالى ورسوله ﷺ أن تعفو عن درمكي وبركي، وهما باران لأهل أرضهما راضين عنهما جداً، وما دخلا في الفتنة بغرضهما، بل بالخوف على أنفسهما...[١].

وعلى هذا يكون قدوم الفقيه من كابرا إلى جنى في نهاية القرن التاسع الهجري أو في أول القرن العاشر الهجري في عهد أمير المؤمنين أسكيا محمد. فلقدومه إلى جنى في وقت مبكر ذكره السعدي قبل الفقيه القاضي محمد سانوا الونكري الذي ولاه أسكيا محمد قضاء جنى كما سيأتي.

وذكر السعدي أن مور مغ كنكي كان فقيهاً عالماً بارعاً في العلم صالحاً عابداً جليل القدر[٢]. وأنه فور وصوله إلى مدينة جنى تقاطر عليه الطلبة وأسرعوا إليه للاستفادة منه ولينهلوا من العلم الذي عنده. وكان نشطاً في أداء رسالة العلم ونشر الثقافة الإسلامية وكان يباشر التعليم والتدريس بالمسجد الجامع بانتظام دائم يخرج من داره في

---

(١) تاريخ السودان ص ٨٤.

(٢) المرجع السابق ص ١٦.

منتصف الليل إلى مقر إلقاء دروسه في المسجد الجامع بجنى فيجلس الطلبة حوله يأخذون عنه العلم ويتلقون الدروس حتى إقامة صلاة الصبح، ثم يعودون إليه بعد الصلاة فيستمر معهم إلى وقت الزوال، ثم يعود إلى داره لأخذ قسط من الراحة ليعود إلى حلقة الدروس بعد صلاة الظهر ويجلس مع طلبته حتى صلاة العصر. وكان مواظباً على هذه الحال مع طلبته[١]. حتى علم أن هناك من لا يرغب في وجوده بجنى فارتحل عنها.

وذكر السعدي سبب رحيله من جنى فقال: أنه كان يصلي صلاة الصبح مع الجماعة ذات يوم فسمع رجلاً بجانبه يقول في سجوده: اللهم إن مور مغ كنكي ضاق علينا البلد أرحنا منه، فلما سلم قال يا رب لا أعرف مضرتي للناس حتى يدعى علي فارتحل يومئذ من جنى إلى كونا فنزل فيها، وسمع بخبره أهل جنج فبعثوا له القارب وارتحل فسكن في جنج إلى أن توفي فيها رحمه الله تعالى[٢].

وكان الفقيه مور كنكي علماً من أعلم الثقافة الإسلامية في مدينة جنى وفي السودان الغربي كله وكان له دور في انتشار الثقافة الإسلامية واللغة العربية ونمو الحركة الفكرية في البلاد وأثر في حياة جنى العلمية تأثيراً قوياً، ولا يزال ذكره عالقاً في أذهان أهالي المنطقة رحمه الله رحمة واسعة.

٢ ـ القاضي محمد سانوا الونكري[٣]:

هو الفقيه فودي محمد سانوا الونكري، كان فقيهاً عالماً عابداً صالحاً. قدم إلى مدينة جنى في أواخر القرن التاسع الهجري[٤]. وكان

---

(١) المرجع السابق بالصفحة نفسها.
(٢) نفس المرجع والصفحة.
(٣) تاريخ السودان ص ٦.
(٤) المرجع السابق.

أول سكنه في قرية قريبة من مدينة جنى تسمى طوراً، ويأتي من هذه القرية إلى مدينة جنى في كل جمعة لأداء صلاة الجمعة بمسجدها الجامع حتى أحبه السلطان وأهالي جنى وتألفت قلوبهم معه. وعند ذلك طلب منه سلطان جنى أن يسكن في جنى بدلاً من قرية طورا، فقبل الطلب. وتمكن بعد ذلك من التأثير على السلطان بمواعظه وقوة حجته حتى حمله على تخريب بيت الصنم الذي كان يعبده الذين بقوا على وثنيتهم من قوم السلطان، وبنى في مكان الصنم داراً لإقامة الفقيه محمد سانوا الونكري، وأحاطه السلطان بمظاهر التبجيل والاحترام، وأصبح بعد ذلك من أهل الشفاعة لديه على الرغم أنه لا يخالط السلطان أبداً ولا يزوره في داره ولا يجالس أفراده وكانوا يطلبون منه زيارة السلطان ولكنه يرفض ذلك مما يدل على مكانته العلمية وقدره هو وأمثاله من علماء السودان في ذلك الوقت الذين رفعوا مكانة العلم بالبعد عن مجالس السلاطين وعدم الخضوع لهم[1].

ولم تكن مكانة الفقيه محمد العالية في مدينة جنى وما حواليها فقط بل تعدت شهرته العلمية وصلاحه إلى مدينة تمبكت مركز الثقافة الإسلامية والعلماء. فعندما زار القاضي الفقيه شيخ الإسلام/ محمود بن عمر بن محمد أقيت عالم بلاد السودان وإمامها بلا مدافع عندما زار مدينة جنى في مطلع القرن العاشر الهجري التقى بهذا العالم الفقيه فأعجب بعلمه وصلاحه. فأثنى عليه لما رجع إلى تمبكت[2]. ونقل ما رآه من حاله من علمه وصلاحه إلى مسامع أمير المؤمنين الحاج أسكيا محمد فولاه قضاء مدينة جنى بعد عودته من الحج[3] حوالي سنة ٩٠٤هـ. وكان أول قاض شرعي يفصل بين الناس بالشرع، وتوليه

---

(١) تاريخ السودان ص ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨.

(٢) تاريخ السودان ص ١٨ والتعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا ص ٢٣٤.

(٣) تاريخ اسودان ص ١٨ وتاريخ الفتاش ص ٥٩.

منصب القضاء في جنى نقطة تحول في تاريخ القضاء الإسلامي في هذه المدينة حيث لم يكن الشرع قبل تعيينه قاضياً يطبق عند الفصل بين الناس في خصوماتهم وسائر القضايا، بل كان الناس قبل تعيينه يترافعون بخصوماتهم وقضاياهم إلى خطيب المسجد الجامع الكبير فيسعى بينهم بالصلح[1]. ولم يعرف منصب القاضي في جنى إلا عندما نصب أمير المؤمنين أسكيا محمد هذا الفقيه العالم الونكري قاضياً. ومرد ذلك كله إلى مكانته العلمية العالية وشهرته بالصلاح في المدينة وقوة تأثيره في أهلها[2].

والفقيه محمد سانوا من العلماء الذين تركوا آثاراً جلية في ازدهار الحياة العلمية في مركز جنى الثقافي وأثروا الثقافة الإسلامية فيها وفي السودان الغربي كله وطبعوها بطابع المذهب المالكي وعقيدة السلف الصالح.

٣ ـ الفقيه القاضي الصالح: محمود بغيع[3]:

هو قاضي مدينة جنى الفقيه العلامة محمود بن أبي بكر بغيع جنوى بلداً ومسكناً، ونكرى أصلاً[4]. كان فقيهاً عالماً جليلاً، وهو والد العالمين الفاضلين الصالحين: الفقيه محمد بغيع عالم تمبكت وفقيهها الذي تقدم الحديث عنه ودوره في ازدهار الثقافة الإسلامية في تمبكت. والفقيه أحمد بغيع[5].

تولى الشيخ محمود بغيع قضاء جنى في العام التاسع والخمسين

---

(١) تاريخ السودان ص ١٨.

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٧ ـ ١٨.

(٣) نيل الابتهاج ص ٣٤١ وصفه أحمد بابا بالفقه والصلاح. وتاريخ السودان ص ١٩. وفتح الشكور ص ١١٣. وقال: لا أعرف تاريخ وفاته.

(٤) تاريخ السودان ص ١٩، وفتح الشكور ص ١١٣.

(٥) انظر نيل الابتهاج ص ٣٤١، وتاريخ السودان ص ١٩، فتح الشكور ص ١١٣.

بعد التسعمائة من هجرة المصطفى ﷺ الموافق سنة **١٥٥١** م ولاه القضاء السلطان أسكيا إسحاق بن أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد، بعد وفاة القاضي العباس كب، والقاضي محمود من العلماء الذين قاموا بدور عظيم في نشر الثقافة الإسلامية وخدمة الإسلام في غرب أفريقيا. وكانت أسرة بغيع عامة من الأسر العلمية المشهورة في تاريخ التعليم والقضاء ونشر الإسلام في غرب أفريقيا عامة وتنبكت وجنى بصفة خاصة[١]. ويلاحظ أن العلماء الذين من الأصل الونكري كانوا كثيرين في مدينة جنى ولهم دور بارز في نشر الإسلام في السودان الغربي وخاصة في نيجيريا وقد سبق ما ذكره بعض المصادر من أن الإسلام انتشر في بلاد هوسا عن طريق الدعاة من علماء الونكري أو الونغار كما تسميهم المصادر النيجيرية وأنه قد هاجرت قافلة من علماء الونكري مكونة من ثلاثة آلاف وستمائة وثلاثين شخصاً ما بين عالم وقارىء من مالي إلى نيجيريا[٢].

وذكر صاحب الثقافة العربية في نيجيريا أن أخبار كانو أفادت بأن الوفد المالي من علماء ونكري الذين وصلوا إلى نيجيريا لنشر الإسلام والثقافة الإسلامية سنة **١٣٤٩**م كان عددهم أربعين رجلاً[٣]. ومهما يكن العدد فإن علماء ونكري قاموا بدور نشط في نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في غربي أفريقيا كله.

وكان القضاء في جنى في عهد امبراطورية سنغاي عهد الازدهار والأمن والاستقرار وانتشار الإسلام والثقافة الإسلامية ـ من الونكريين،

---

(١) انظر تاريخ السودان ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦ وقبلها ص ١٨ ـ ١٩ وانظر نيل الابتهاج ص ٣٤١ ـ ٣٤٢.

(٢) انظر الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا ص ٣٣.

(٣) انظر كتاب الثقافة العربية في نيجيريا من ١٧٥٠ ـ ١٩٦٠ م ص ٣٨ والإسلام في نيجيريا ص ٣٢.

وآخر القضاة السودانيين في جنى كان ونكرياً وهو القاضي محمد بنب كنات[1].

وذكر السعدي أشهر الفقهاء الذين تولوا القضاء في مدينة جنى في عهد امبراطورية سنغاي الإسلامية وهم على الترتيب كما ذكرهم:

القاضي محمد فودي سانو الذي تقدم الحديث عنه من أنه أول قاض تولى منصب القضاء في جنى ثم القاضي فوك، ثم الفاضي كناجي، ثم القاضي تنتاع، ثم القاضي سنقم، ثم القاضي العباس كب وقال عنه أنه من أهل جنى وكان فقيهاً عالماً جليلاً فاضلاً خيراً له قدم راسخ في السخاء والعلم[2]. ثم القاضي محمود بغيع، ثم القاضي عمر ترف، ثم القاضي تلماكلس، ثم القاضي أحمد ترف بن القاضي عمر ترف. وقال عنه أنه جنوي الأصل والبلد، وكان خطيباً ثم جعل إمام الجامع ثم قاضياً فجمع المراتب الثلاث ثم مشى للحج واستناب الخطيب ماما على الخطبة. والإمام يحيى على إمامة الجامع، والقاضي مؤدب بكر تروري على القضاء فتوفي هناك[3].

ثم القاضي مودب بكر تروري وقال عنه: (أنه كلوي أصلاً من أولاد سلاطينها فزهد في السلطنة وخدم العلم فبارك الله في علمه ونال بركته.[4] ثم القاضي محمد بنب كنات، ووصفه السعدي بأنه كان فقيهاً عالماً جليلاً ونكري الأصل تولى القضاء بعد وفاة القاضي بكر تروري. وهو آخر القضاة في دولة السودانيين وهؤلاء ـ أي الذين تقدم ذكرهم من القضاة ـ من علماء مدينة جنى المشهورين ولم توردهم في هذا الكتاب إلا لأجل شهرتهم بالعلم)[5].

---

(١) تاريخ السودان ص ١٩.
(٢) تاريخ السودان ص ١٩.
(٣) تاريخ السودان ص ١٩ ـ ٢٠.
(٤) المرجع السابق ص ١٩ ـ ٢٠.
(٥) المرجع السابق ص ١٩.

وقال بعد ذكر أسماء هؤلاء القضاة بالترتيب المتقدم: (فهؤلاء قضاة من أول دولة أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد إلى آخرها...[1] وأما الفقهاء الذين تولوا القضاء في هذه المدينة بعد انهيار دولة سنغاي الإسلامية واستيلاء المراكشيين عليها فأغلبهم من أصل مغربي. وأما العلماء الذين سكنوا فيها من غير السودانيين فقد ذكر السعدي بأنهم كثيرون في عهد حكم الدولة المراكشية[2]. وبهذا العرض التوضيحي للحركة الثقافية والفكرية والحياة التعليمية في مراكز الثقافة الإسلامية الرئيسة: غاو، وتمبكت، وجنى في السودان الغربي والفقهاء الذين قاموا بدور بارز ونشط فيها أيام ازدهار الأمبراطوريتين الإسلاميتين مالي وسنغاي نصل إلى أن الأهداف الأساسية من وراء حركة علماء السودان التعليمية في تلك المراكز الثقافية هي:

أولاً: هدف ديني عقدي وهو معرفة الله سبحانه وتعالى وما يجب على العبد من وجوب الاعتقاد بوحدانية الله سبحانه وتعالى وما يتعلق بذلك من الإيمان برسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره. ومعرفة ما أوجبه الله على عباده من عبادات كالصلاة والصوم والحج والزكاة وبيان ما نهى الله عنه من المحرمات مثل شرب الخمر وقول الزور وقتل النفس بغير حق...

وقد أدرك العلماء والفقهاء في السودان الغربي في ذلك العهد أن الإنسان عندما يعرف ربه وكيفية عبادته ويتخلق بأخلاق الإسلام يصبح

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠ الإفتاء والقضاء منصبان علميان عظيمان لا يتبوأهما إلا شيوخ العلم، وكان القاضي في عهد ملوك السودان الوطنيين يتمتع بسلطة تفوق سلطة الملك نفسه. وكان الملك لا يبرم أمراً في عهد آل أسكيا من ملوك سنغاي إلا بمشورة القاضي وكان القاضي لا يحاسب على خطأ وكذلك أعوانه. لذلك كان منصب القضاء منصباً عظيماً لا يتولاه إلا من اشتهر بالعلم والصلاح والورع والتقوى.

(٢) تاريخ السودان ص ٢٠.

فرداً صالحاً في مجتمع صالح. لذلك كانوا المثل الأعلى في تطبيق أحكام الشريعة على أنفسهم قبل أن يأمروا تلاميذهم بها والقدوة الصالحة في تدريسهم وتعليمهم وتوجيههم لأولئك التلاميذ. وعامة المجتمع السوداني.

ثانياً: هدف دنيوي يحث عليه الشرع ويأمر به لما فيه من صلاح الدين والدنيا مثل الالتزام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال بالفعل والقول والقيام بواجبات الفرد المختلفة في مجتمعه، والوصول إلى المناصب الاجتماعية العالية مثل التدريس والإفتاء والقضاء.

وقد اتجه الفقهاء والعلماء بالثقافة الإسلامية في السودان الغربي كله منذ البداية إلى إصلاح النفس البشرية المسلمة وإصلاح المجتمع الإسلامي وإعداد الفرد للقيام بواجبات الدعوة إلى الله والتعليم والتدريس.

الكتب الدراسية في جامعات ومعاهد الثقافة الإسلامية في كل من تمبكت وغاو، وجنى في عهد ازدهار العلم والإسلام في الدولتين الإسلاميتين مالي وسنغاي

مما تقدم من الحديث عن المراكز الثقافية وتراجم الفقهاء والعلماء الذين قاموا بحركة تعليمية نشطة في تلك المراكز يتضح لنا أن التعليم في مدن السودان الغربي عامة (أفريقيا الغربية) وفي تمبكت خاصة حظي بعناية فائقة واعتبار كبير من السلطة الحاكمة في السودان ومن الشعب، نظراً لما يتيح لطالبه من مكانة مرموقة في المجتمع بعد تحصيله من مناصب عالية كالتدريس والإفتاء والقضاء، والإمامة. وأيضاً ولارتباطه بالمقومات الدينية، ولما كان يتمتع به المدرسون من الفقهاء والعلماء من تقدير وإجلال من الحكام، واحترام قد يصل إلى درجة تقديس من العامة، وقد سبق أن وضحنا أن تمبكت وجامعاتها حظيت بسمعة مدوية في العالم الإسلامي مثل السمعة نفسها التي حظيت بها فاس والقاهرة

وتونس، كما بينا أن الطلبة كانوا يتوافدون عليها لأخذ العلم من علمائها من مراكش والجهات البعيدة في السودان من بلاد هوسا ومسينا وبلاد الفولبية[١]. وكان أولئك الطلبة بعد المرحلة الأولية من الدراسة يدرسون أمهات الكتب على الأساتذة السودانيين المتضلعين في العلم، وقد يذهب عدد منهم إلى فاس أو مراكش أو تونس أو مصر أو الحجاز للاستزادة في العلم وحضور مجالس مشاهير العلماء في هذه البلاد.

وكان أولئك الطلبة يجتهدون ويبذلون كل ما يملكون من طاقة للحصول على ثناء مكتوب أو إجازة علمية جزئية أو عامة من بعض شيوخهم لأن ذلك يفتح أبواب التدريس وتوليه بعض المناصب الدينية في بلادهم[٢].

وكانت الكتب الدراسية المتداولة في المراكز العلمية في أفريقيا الغربية في ذلك العهد هي نفس الكتب الدراسية المعروفة في البلاد الإسلامية الأخرى، وخاصة المغرب والأندلس وتونس ومصر، ومن أهم الكتب الدراسية في المراكز السودانية: كما جاء في تراجم الفقهاء والعلماء المتقدمة: كتب التفسير من أهمها الجلالين[٣]، موطأ الإمام مالك في الحديث والفقه، صحيح البخاري، صحيح مسلم[٤]، والشفاء للقاضي عياض في السيرة والشمائل[٥]، ومدونة سحنون في فقه الإمام مالك، والرسالة في الفقه المالكي، ومختصر خليل والمنتقى للباجي شرح الموطأ[٦]، ومختصر ابن الحاجب الفرعي في الفقه المالكي،

---

(١) انظر تاريخ الفتاش للقاضي محمود كعت ص ١٧٩ ـ ١٨٠ وتاريخ السودان ص ٤٧ ـ ٤٨ تقدم بيان ذلك في الكلام على الثقافة والإسلام في تمبكت وعلمائها.

(٢) الفتاش ص ١٧٩ ـ ١٨٠ ونيل الابتهاج في ترجمة محمد بغيع ص ٣٤٢ وتقدم في ترجمتنا له من علماء تمبكت، وبداية الحكم المغربي في السودان الغربي ص ٥٤٧.

(٣) السعدي ص ٣٣، ٤٦ وإيداع النسوخ الورقة ١٦.

(٤) نيل الابتهاج ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ في ترجمة بغيع وتاريخ السودان ص ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٦.

(٥) نيل الابتهاج ص ٨٩ وفي مواضع أخرى وتاريخ السودان ص ٣١ ـ ٣٢.

(٦) نيل الابتهاج ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ وتاريخ السودان ص ٤٣ ـ ٤٤.

ومختصر ابن الحاجب الأصلي في الأصول وتهذيب البراذعي في الفقه المالكي، وجامع المعيار للونشريسي، وتحفة الحكام لابن عاصم في الأحكام مع شرح ولده عليها، والمعيار المعرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب للونشريسي، والبيان والتحصيل لابن رشد، والقرطبية في الفقه، وجمع الجوامع في الفقه، والجامع الصغير في الحديث للسيوطي، وألفية العراقي في علوم الحديث مع شرحها[1] والمنتقى والمدونة بشرح المحلى. وألفية ابن مالك في النحو وتلخيصها للسيوطي، والأجرومية وشرحها في النحو، والبهجة المرضية في النحو، وجمع الجوامع في العربية، وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد المشهور (بالتسهيل لابن مالك في النحو)، ومقامات الحريري في الأدب العربي، وسيرة ابن هشام، والمدخل لابن الحاج، ورجز المغيلي في المنطق وشرحه لأحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت، وجميع مؤلفات المغيلي وعقائد السنوسي في التوحيد وهي ثلاثة: العقيدة الكبرى والوسطى والصغرى، والخزرجية في العروض بشرح الشريف، والدماميني. والعشرينيات (الفزازية) في المدائح النبوية، وألفية الأثر في الحديث، وشرح النقاية في الأصول، والبيان والتصوف، والكوكب الساطع في نجم جمع الجوامع، وهو في الأصول والبيان والتصوف، وشرح الكوكب الوقاد في الاعتقاد. وقطر الندى وبل الصدى في النحو. وحكم ابن عطاء الله مع شرح زروق عليه، ونظم أبي مقرعة، والهاشمية في التنجيم مع شرحها، ومقدمة التاجوري[2]. وشرح المكودي على ألفية ابن مالك،

---

(١) النيل ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ وتاريخ السودان ص ٤٥ ـ ٤٦ وص ٣٨.

(٢) انظر لما تقدم من هذه المقررات الدراسية في تلك البلاد في ذلك العهد تراجم الفقهاء والعلماء المتقدمة أو المراجع التالية: نيل الابتهاج ص ٩٣ وص ٣٣١ و٣٤٠ و ٣٤١ ـ ٣٤٢، وتاريخ السودان ص ٢٩ ـ ٣١ ـ ٣٣ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧ وما بعد هذه الصفحات وتاريخ الفتاش ص ٩٤ وفتح الشكور ص ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ومن ص ٢٦ إلى ص ٣٦ وما بعدها.

والبسط والتعريف في علم التصريف للمكودي أيضاً، ولامية ابن المجراد السلوي في الجمل، والمرشد المعين لابن عاشر الفاسي، ولامية الزقاق، والمنهج المنتخب في قواعد المذهب للزقاق أيضاً، والدرر اللوامع في قراءة نافع لابن بري، وإضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة لأحمد المقري. والطرف في مصطلح الحديث لمحمد العربي الفاسي. ونظم أبي مقرع في التوقيت، ونظم المقنع للمرغيثي، وشرح أبي الحسن الصغير للناس على المدونة، والمراصد في التوحيد لمحمد العربي الفاسي، ومنظومة الزكاة له. ونوازل عبد القادر الفاسي، ونظم العمل للفاسي وشرحه لولده أبي زيد. وتكميل المرام في شرح شواهد ابن هشام لمحمد بن عبد القادر الفاسي... وغيرها من المقررات الدراسية والمراجع عندهم[1].

وهذه الكتب كانت تدرس في تمبكت خاصة وغيرها من المراكز التعليمية والثقافية في أفريقيا الغربية مع روايتهم لها بالسند والاعتماد والإجازة عن شيوخهم كما تقدم في تراجم كثير من العلماء والفقهاء السودانيين. وهذه المواد الدراسية في المراكز الثقافية السودانية تدل على المستوى الرفيع الذي وصل إليه فقهاء وعلماء غربي أفريقيا من العلم والثقافة. بل وقد رأينا في التراجم السابقة أنهم فوق دراستهم لهذه الكتب وروايتهم لهما بالسند والاعتماد والإجازة قد وضعوا الشروح والحواشي والتعاليق على بعضها، واختصروا بعضها[2].

---

(١) انظر فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ص ١٠ و ١١ والمراجع السابقة.

(٢) نيل الابتهاج ترجمة أحمد بن أحمد بن عمر أقيت ص ٩٣ وترجمة محمد بن مجمود الونكري ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ وترجمة غيرهما من التراجم المتقدمة من علماء السودان. وانظر تاريخ السودان ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ وفتح الشكور ص ١١ وص ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٤٥ وما بعدها.

وأما في ميدان دراسة الشعر العربي فقد ذكر بعض المصادر أن الطلاب كانوا يدرسون شعر ابن دريد[١]. وأشعار الشعراء الستة[٢] بجانب شعر المدائح النبوية[٣] وكان الفقهاء والعلماء في عهد ازدهار الثقافة الإسلامية في السنغاي يستشهدون كثيراً بأشعار شعراء العرب وكتاباتهم، فعبد الرحمن السعدي يصف تمبكت بأنها تشبه في روعتها وجمالها ما كان قد شبه به الهمذاني البصرة في مقاماته[٤]. ويستشهد الشيخ أحمد بابا في كتابه (الكشف والبيان لحكم مجلوب السودان) أو معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السودان) يستشهد على صواب نظريته في أن السودان في لون البشرة لدى الإنسان مرده إلى العوامل المناخية والطبيعية، برأي ابن خلدون، ثم يورد رجز أبي علي بن سينا الذي لخص فيه رأيه في نفس الموضوع بقوله:

حـــر غـــيـــر الأجـــســـادا حـتـى كـسـا جـلـودهـا سـوادا

والـصـلـغـب اكـتـسـبـه بـيـاضـاً حتى غدت جلودها فضاضاً[٥]

وهذا دليل على أن أولئك العلماء كانوا مطلعين اطلاعاً تاماً على الأشعار العربية والكتابات المنمقة لدى الهمذاني والحريري وغيرهما من الكتاب والشعراء والأدباء. ويلاحظ أنه ليس في السودان الغربي شعراء مستقلون يقرضون الشعر العربي كما في المشرق الإسلامي والأندلس. وإنما كان العلماء والفقهاء هم الذين يقومون بدور الشعراء لأنهم هم الذين أجادوا اللغة العربية وتذوقوا سحرها وبلاغتها وأسرارها،

---

(١) تاريخ الفتاش ص ١٨٢.

(٢) إيداع النسوخ من أخذت عنه من الشيوخ لعبد الله فودي ورقة ٣٧ مخطوط.

(٣) تاريخ السودان ص ٣١ وص ٤٢ ـ ٤٣.

(٤) المرجع السابق ومملكة سنغاي في عهد الأسكيين ص ١٥٥.

(٥) الكشف والبيان لحكم مجلوب السودان ورقة ١٩ ـ ٢٣ مخطوط بمركز أحمد بابا بتمبكت في جمهورية مالي ومملكة سنغاي ص ١٥٦.

واتخذوها أداة للتعبير عن مشاعرهم وما يجيش في صدورهم من معاني[1].

وبهذا العرض البياني للمقررات الدراسية من الكتب الثقافية والعلمية والدور الذي قام به علماء السودان في مراكز الدراسة والعلم في كل من غاو تمبكت وجنى وغيرها نصل إلى النتيجة التالية:

أ ـ أن المواد الدراسية التي كانت تدرس في مراكز الثقافة بالسودان الغربي: هي العلوم الدينية، ومعها بعض العلوم المساعدة لها مثل النحو والصرف والبلاغة والأدب العربي، والمنطق، وشيء من الفلسفة.

ب ـ أن نظام التعليم في تلك المراكز الثقافية لم يكن شاملاً لكتب التاريخ كلها وأحوال الأمم والمجتمعات الإنسانية وتقويم البلدان.

ج ـ أن النظام الدراسي لم يكن شاملاً للعلوم التجريبية التي كانت مزدهرة في العصور الإسلامية السابقة التي أخذتها أوروبا النصرانية عن المسلمين، وكانت أساس نهضتها الحديثة.

وكانت المواد العلمية والاجتماعية مع الجانب الأدبي تنقص النظام التعليمي في المعاهد والجامعات في السودان الغربي في ذلك العهد، وهذا النقص الذي كان سائداً في النظام التعليمي في عصر

---

(١) ويلاحظ أن أبواب الشعر التي طرقها علماء السودان لا تتجاوز: الثناء على الله والمديح والفكاهه والوصف، والرثاء، والوعظ والإرشاد، والحكم، والأمثال والفكاهة والزهد، وطلب العلم، وقد أورد صاحب كتاب الثقافة العربية في نيجيريا أبيات كثيرة لهذه الأغراض، وكذلك فعل أدم الألوري في تاريخ نيجيريا أورد بعض الأبيات في الزهد وطلب العلم ولكن تلك الأشعار كانت لعلماء سودانيين متأخرين في عصر عثمان بن فودي ومن بعده من العلماء والكتاب.

ازدهار الثقافة الإسلامية في أفريقيا الغربية قبل وصول الاستعمار مما أفسح المجال أمام الاستعمار الأوروبي بعد وصوله للمنافسة القوية من جانب التعليم الاستعماري.

والضعف العلمي في هذا الجانب كان سائداً في العالم الإسلامي كله في ذلك العصر، مما ساعد الاستعمار في السيطرة على العالم الإسلامي بسبب تفوقه في الجانب العلمي الذي أهمله المسلمون بعد أن كان لهم قدم السبق فيه.

مما تقدم إيضاحه من الحركة الثقافية ودور الفقهاء والعلماء السودانيين فيها يتعلق بعهد الحكومات السودانية التي قامت في أفريقية الغربية من القرن الرابع الهجري حتى مطلع القرن الحادي عشر الهجري عند سقوط أمبراطورية سنغاي الإسلامية نهائياً تحت ضربات جيوش الدولة السعدية بمراكش. وقد اتضح مما تقدم بيانه: أن عهد مملكة سنغاي تحت حكم آل أسكيا هو العهد الذي تميز بكونه يمثل فترة من النضج الثقافي والحضاري لم يسبق لها مثيل في تاريخ السودان الغربي كله. وكان آل أسكيا أول حكام في السودان الغربي نظموا دولة على أساس وطني لا على أساس قبلي، وبنوا قواعد دولتهم على أسس إسلامية واستمدوا قوانينها من أحكام الشريعة الإسلامية، ونبذوا المفهوم القبلي الضيق الذي ظل يفت في عضد الدول التي سبقتهم في المنطقة، وبلغت مدينة تمبكت ومدينة جنى في عهدهم قمة الاتساع والازدهار الثقافي والعلمي والتجاري وتمتع سكانها بقدر كبير من الرفاهية. وكانت أرض السودان عموماً من أعظم أرض الله تعالى نعمة ورفاهية وأمناً واستقراراً وعافية في كل جهة ومكان. وانتشر فيها المساجد ومعاهد العلم ومكتباته. وعمت الثقافة الإسلامية ربوع البلاد، ولمع كثير من علماء السودان في شتى العلوم والمعارف قد تقدم توضيح ذلك بكلام ابن بطوطة والحسن الوزان والسعدي في تاريخه.

بعد أن أنهينا الحديث عن الثقافة الإسلامية في الدول السودانية الإسلامية التي قامت في السودان الغربي نتناول أثر غزو الدولة السعدية لمملكة سنغاي على الثقافة الإسلامية والحركة العلمية في السودان.

استيلاء جيش أحمد المنصور الذهبي على مملكة سنغاي وأثرذلك على الثقافة الإسلامية ومعاهدها وحركة العلماء في السودان

كان أحمد المنصور السعدي الملقب بالذهبي حريصاً على غزو مملكة سنغاي وضمها إلى مملكته طمعاً في خيراتها لأن بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال[١]. لذلك واظب على مدى السنوات العشر السابقة للغزو، على إرسال العيون والجواسيس إلى السودان الغربي[٢].

قد قام المنصور بجمع المعلومات الكافية عن مملكة سنغاي تمهيداً لغزوها فبث العيون داخل القصر الملكي بغاو، وفي جيش أسكيا وفي الإدارات المحلية في أنحاء الأمبراطورية، وعمل على استمالة الشخصيات ذات النفوذ الديني الاجتماعي والسياسي، والقضاة والأعيان والعلماء في تمبكت وفي مدينة غاو، وجنى وفي جميع أنحاء السودان، واستخدم هذه الشخصيات في جمع المعلومات عن الوضع في السودان[٣] لقاء هدايا وأموال. وكان منهم قاضي تمبكت العاقب بن محمود بن عمر أقيت الذي منحه ملوك آل أسكيا سلطات واسعة تفوق أحياناً سلطة أسكيا نفسه، وعمر بن محمود بن عمر أقيت الذي تولى القضاء بعده وغيرهما من العلماء وبعض القضاة[٤].

---

(١) الاستقصاء في دول المغرب الأقصى للناصري ص ١١٢ ـ ١١٣.

(٢) بداية الحكم المغربي في السودان ص ١٦٦.

(٣) مناهل الصفا في أخبار ملوك الشرفا، ص ٢٠٧، وص ١٢٣ وص ٣٣٦ للفشتالي عبد العزيز بن محمد المتوفى سنة ١٠٣١هـ نشر جامعة محمد الخامس بالرباط، طبع المطبعة المهدية تطوان، وكان الفشتالي ممن عاصر الأحداث في عصر المنصور الذهبي ورأى ما حل بالسودان.

(٤) بداية الحكم المغربي في السودان ص ١٨٣ والفشتالي ص ٣٣٦ وتاريخ السودان ص ٣٠ ـ ٣١ والاستقصاء ص ١٢٩.

وكان قاضي تمبكت هو المرجع الروحي الأول في أمبراطورية سنغاي الإسلامية، وكان تأثيره في البلاط الملكي وفي أوساط العلماء والعامة وفي الجاليات البيضاء في تمبكت وغيرها كبيراً وخطيراً جداً[١] لهذا حرص المنصور على استمالته والتوجه إليه والأخذ بنصائحه تهيئة له ولأتباعه والمتأثرين به ليوم الغزو الموعود[٢].

وقد ذكر الفشتالي الذي عاصر الأحداث: أن أحمد المنصور الذهبي وجه رسالة إلى قاضي تمبكت أبي حفص عمر بن محمود بن عمر أقيت قبل غزو السودان بقليل سنة **١٥٩٨**م وتضمنت الرسالة التي ذكرها الفشتالي ثلاث نقاط أساسية هي:

١ ـ الدخول في طاعة السعديين. ٢ ـ أن يتولى القاضي إشاعة دعوتهم في أقطار السودانيين كلها لأنه أولى بمعرفة قدر الخلافة وشرف آثارها وأحقيتها بقيادة المسلمين في كل جهة. ٣ ـ أخبار القاضي بقرب تحرك حملة عسكرية إلى السودان[٣]. ويتبين من آخر فقرة في تلك الرسالة أن المنصور كان يجيب على كتاب يحتوي على معلومات تلقاه من القاضي قبل ذلك، وأنه قدم للمنصور جملة من النصائح على ما يجب أن يتحلى به جيش السعديين عندما يحل بالسودان وطلب منه أيضاً أن يشتمل ذلك الجيش على عناصر وفئات حددها القاضي في رسالته[٤].

---

(١) بداية الحكم المغربي في السودان ص ١٨٥ ـ ١٨٦ والفشتالي ص ٣٣٦، والصفحات السابقة.

(٢) بداية الحكم المغربي في السودان ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٣) المرجع السابق ص ١٨٦.

(٤) بداية الحكم المغربي في السودان ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ومناهل الصفا ص ١٣٢ ونفس الرسالة في الصفحات ١٣٢ ـ ١٣٣ ـ ١٣٤. وموجودة في بداية الحكم المغربي ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ـ ١٨٨ ـ ١٨٩.

وبعد ذلك أرسل المنصور الذهبي جيشه لاحتلال السودان الغربي كله والقضاء على أمراطورية سنغاي الإسلامية المترامية الأطراف سنة **٩٩٩**هـ وقال الناصري في الاستقصاء: أن جيش المنصور بقيادة جودر كانوا يقتلون السودان وكان السودانيون ينادون نحن مسلمون نحن إخوانكم في الدين والسيوف عاملة فيهم وجنود جودر يقتلون ويسلبون في كل وجه[١]. لقد وجد جودر قائد جيش المغاربة نفسه أمام حقائق في السودان وفي مقدمة تلك الحقائق: أن الشعوب التي حمل المغاربة سلاحهم في وجهها ويقتلونها وينتهكون أعراضها ويسلبون أموالها كانت شعوباً إسلامية مؤمنة بالله حق الإيمان، ففي معركة تنديبي كان جيش سنغاي يلهجون بالشهادة وينادون إخوانهم المسلمين (جيش المغاربة) ويطلبون منهم أن يكفوا عنهم الأذى. وأن يوقفوا سفك دماء المسلمين ولكن جيش المغاربة لم يلتفتوا إلى هذا النداء من إخوانهم السودانيين بل استمروا في قتلهم وسلبهم ونهب أموالهم وانتهاك أعراضهم[٢]. وقد نبه بعض الفقهاء والعلماء من السودانيين جودر ممن اتصلوا به منهم خطيب جامع غاو نبهوه إلى مسألة فقهية في منتهى الخطورة وهي أن (أهل السودان أسلموا طوعاً بلا استيلاء أحد عليهم ولم يسمع قط أن أحداً فرض عليهم هذا الدين ولا أن أحداً استولى عليهم قبل إسلامهم، فكيف يصح الجهاد فيهم وهم مسلمون مهما كانت المبررات للقيام بذلك[٣]. بالإضافة إلى ذلك أن أهل سنغاي الذين يقتلهم جيش المغاربة كانوا يعرفون (بمسلمي الدم) أي أنهم لم يسلموا طوعاً فقط

---

(١) الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى ص ١٢٢.

(٢) المرجع السابق وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٢٧٣ وتاريخ السودان ص ١٧١ وتاريخ الفتاش ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٣) الاستقصاء ص ١٠٣ الباب الخاص بالسودان وحوادث الغزو. وبداية الحكم المغربي ص ١٧٣.

ولكنهم جادوا بدمائهم لنصرة الدين أيضاً[1] فكيف يجوز قتال أمثال هؤلاء، وسفك دمائهم ونهب أموالهم وانتهاك أعراضهم.

ونحن لا نعلم مبلغ الأثر الذي كان يتركه منظر السوداني وهو يدخل المسجد ويستقبل القبلة ويحارب دفاعاً عن نفسه وعرضه ودينه وهو ينطق بالشهادتين في نفوس أفراد الجنود المغاربة الذين يؤمرون بقتل إخوانهم ولاسيما أن قادتهم مشركون وكان الأحرى أن تتجه بنادق المسلمين صوبهم، ألا يتصور أن الجندي المغربي المؤمن مهما كان انضباطه كان يجد نفسه قريباً إلى ذلك السوداني الذي يقتله منه إلى قائده الأبيض النصراني أو المشكوك في إسلامه[2] ومن المشكوك فيه أن يكون أحمد المنصور غير عارف بالوضع النفسي لأفراد جنده الذين كانوا يقاتلون شعوباً إسلامية تحت قيادة مشكوك في إسلامها[3] تم القضاء على آل أسكيا وانهارت أمبراطورية سنغاي الإسلامية التي كانت مصدر نور وإشعاع في السودان الغربي وقامت برعاية العلم والعلماء والطلاب. وبانهيار أمبراطورية سنغاي وانتهاء مقاومتها بمقتل أسكيا نوح سنة ١٠٠٣هـ، الذي قاوم احتلال السعديين مدة أربع سنوات دون كلل أو ملل. وبنقل الفقهاء والعلماء مقيدين في سلاسل سنة ١٠٠٢هـ انهارت الحضارة الإسلامية والثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي، وساد الظلام تلك المنطقة كلها من جراء أعمال القمع والإرهاب اللذين لجأ إليهما الجيش المراكشي لإخضاع شعوب

---

(١) تاريخ السودان ص ٣.

(٢) لقد كان من بين قادة الجند الذين يحاربون المسلمين في السودان ضباط كبار ينتسبون للكنيسة وقد أكد السعدي أن الكاهية باحسن فريدو الذي رافق العلاء السودانيين الذين أمر المنصور بإرسالهم إلى مراكش مقيدين بالسلاسل كان قسيساً. انظر تاريخ السودان ص ١٥٤، وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٣٣١.

(٣) بداية الحكم المغربي في السودان ص ٣٣١ وكان القائد باختيار نصرانياً وهو من كبار القيادات في السودان، المرجع السابق ص ٣٣٣.

المنطقة، واستقبلت المنطقة عهداً جديداً من حكم القواد الغزاة والباشوات، فبعد سنوات قليلة راح قادة جنود الاحتلال كل منهم يستقل بمنطقة وقامت دويلات في تمبكت وجنى وغاو وبامبا والأراضي حول كل منها. وتركوا باقي أرض سنغاي لمن حاولوا اقتسامها ونهبها من البربر والموشى والبنبر والفولاني والهوسا وعاشت في هذا الركن من أفريقية عدة ممالك صغيرة منفصلة تتقاتل وتتنافر فيما بينها، أصيبت البلاد خلالها بالتفكك والانحلال والخمول فكثرت الحروب الأهلية، واستغلت الولايات والممالك التي كانت تابعة لسنغاي تلك الفوضى فاستقلت عنها، بل هاجم كفار (بنبرا) مدينة جنى وأتلفوها وخربوا جميع البلاد ونهبوها وسبوا أهلها[1]. وتوزعت بلاد الهوسا ممالك متحاربة فيما بينها، واعتلى الحكم في بعض الإمارات الإسلامية حكام وثنيون، وخمد نشاط العلماء والفقهاء والدعاة كقوة موجهة مؤثرة في ازدهار الثقافة الإسلامية وحضارة السودان. وتدهورت مراكز العلم والثقافة الإسلامية في السودان، وانهارت تمبكت بحضارتها وثقافتها، وكذلك بقية المدن الزاهرة بالحضارة والثقافة مثل غاو وجنى وكانو واستمرت الفوضى على النيجر الأوسط وما حوله[2]. وكان من قساوة هذا الغزو على تلك البلاد أن هرب أكثر علماء تمبكت ممن نجا منهم من الإعدام والنفي إلى كشنا (نيجيريا) فازدهرت فيها الثقافة الإسلامية،

---

(١) انظر تاريخ السودان ص ١٧١ وما بعدها والفتاش ص ١٧٤ ـ ١٧٥ وكتاب الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا ص ٢٢١ ـ ١٢٢ والثقافة العربية في نيجيريا ص ٥٠ ـ ٥١ والتأثير الإسلامي للنقيرة ص ٢٠٢ وانظر أيضاً أفريقيا من السنغال إلى نهر جيبا ص ١٢٠ لمحمد عبد الفتاح إبراهيم.

(٢) تاريخ الفتاش ص ١٧٥ وتاريخ السودان ص ١٧١ وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٣٢١ ـ ٣٢٩ والثقافة العربية في نيجيريا ص ٥٠ ـ ٥١ والدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني ص ١٢٢ للدكتور حسن عيسى عبد الظاهر طبع جامعة الإمام ١٤٠١هـ والتأثير الإسلامي في السودان الغربي ص ٢٠٢.

فكان سقوط أمبراطورية سنغاي الإسلامية قد أفاد مدينة كشنا ونيجيريا عامة من الناحية الثقافية لأنه عندما تفككت أمبراطوبية سنغاي الإسلامية إثر الغزو المراكشي لها في نهاية القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر الميلاديين برزت إمارات الهوسا عامة وكشنا خاصة كملجأ لكثير من العلماء الهاربين والقادمين إليها من معاهد تمبكت وغاو وجنى فازدهرت مدينة كشنا علمياً وثقافياً ووجد فيها حي خاص بالطلبة. وأصبحت من المدن القيادية الثقافية في غرب أفريقيا، حيث تحول معظم عناصر ازدهار سنغاي إليها التي فرت من التدمير والإبادة من قوات الغزو، فوجدت كشنا نفسها صاحبة شهرة وحضارة وثقافة مزدهرة، وبمرور الزمن أصبحت تشتهر بالعدل وتسودها العفة والأخلاق الحميدة وتكثر فيها المعاهد التعليمية وتعم ربوعها الثقافة الإسلامية. كل ذلك بسبب تحول العلماء والفقهاء من السنغاي إليها بعد انهيار الثقافة الإسلامية والحركة العلمية في أمبراطورية سنغاي أثناء غزو المغاربة لها[1] وقد صدق المتنبي حين قال:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

لقد أنزل الحكم المغربي في السودان منذ بدايته ضربة مؤلمة وقاسية على علماء تمبكت شملت خصوصاً عائلة أقيت التي كانت لرجالها سطوة ونفوذ لدى سلاطين السنغاي وفي المجتمع السوداني كله.

قال الناصري في الاستقصاء: (كان بنو أقيت التكروريون من أهل مدينة تمبكت وممن لهم الوجاهة الكبيرة والرئاسة الشهيرة ببلاد السودان ديناً ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم

---

(١) تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غربي أفريقية ص ٢٦٦ وانظر الثقافة العربية في نيجيريا ص ١٧٦ وكان من أهم معاهد كشنا المعهد الذي أنشأه الشيخ محمد غيغما وهو من المهاجرين من مملكة سنغاي ويسمى المعهد (معهد الحنبليين) وقد ساهم هذا المعهد في نشر العلم في نيجيريا.

مدة طويلة تقرب من مائتي سنة كانوا من أهل اليسار والسؤدد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه. . . إلى أن كانت سنة اثنتين وألف، فكان أهل السودان قد سئموا ملكة المغاربة وأنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطانهم الأول، وكانت أذنهم مع ذلك صاغية لآل أقيت فتخوف المنصور منهم (فغدر بالعهد الذي قطعه للقاضي حين كان يدعو له بالخلافة سراً) وربما وشيى إليه بهم، فكتب إلى عامله محمود بن زرقون بالقبض عليهم وتغريبهم إلى مراكش، فقبض على جماعة كبيرة منهم، كان منهم الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بابا والقاضي أبو حفص عمر[1] بن محمود بن عمر بن محمد أقيت وغيرهما، وحملوا مصفدين في الحديد إلى مراكش ومعهم حريمهم، وانتهبت ذخائرهم وكتبهم[2]. وكانت نكبة العلماء بدأت باستئصال شأفة عائلة الشريف الصقلي فقد صدرت أوامر السلطان أحمد المنصور السعدي الملقب بالذهبي إلى قائده بالسودان محمود بن زرقون الذي كان يغزو سنغاي بالقضاء على عائلة أحمد الشريف الصقلي واستئصال شأفتها أولاً مهما كانت النتائج ثم إلقاء القبض على القاضي وعائلة أقيت وترحيلهم إلى مراكش ومن أجل ذلك وجه محمود زرقون تعليمات السلطان كما وردت إليه إلى حاكم تمبكت من قبله بإلقاء القبض على أفراد العائلة وفي مقدمتهم الشريفان: محمد الشيخ محمد بن عثمان، وبابا عمر سبطي الشريف أحمد الصقلي الذي استقدمه أمير المؤمنين

---

(١) القاضي عمر هذا كان ممن له سلطة مطلقة ونفوذ واسع لدى ملوك سنغاي وعامة الشعب، ولكنه مع ذلك غره سلطان مراكش أحمد المنصور الذهبي بالأماني واستماله إليه وكان من كبار الدعاة له في السودان بالخلافة وكانت الكتابات بينهما مستمرة لغزو أمبراطورية سنغاي الإسلامية وضم السودان كله إلى مراكش. وقد لقي القاضي جزاء عمله هذا حيث ألقي القبض عليه ووضع هو وأسرته في السجن عدة شهور ثم أرسلوا إلى مراكش مقيدين في سلاسل من حديد ومات هناك ولم يعد إلى تمبكت.

(٢) الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى ص ١٢٩ تحت عنوان نكبة الفقيه أبي العباس أحمد بابا السوداني وعشيرته من آل أقيت.

الحاج محمد أسكيا أثناء حجه من مكة فاقتادهما قائد تمبكت بنفسه إلى سوق مدينة تمبكت، فأصدر الأمر بقطع أيديهما وأرجلهما بالفأس وتركهما على تلك الحالة معذبين حتى الموت، وقد أنجز ذلك القتل الشنيع المكلف بالسجون ومراكز التعذيب علي الدراوي، وكان برتبة قائد مع مساعده شاوش الكامل الذي باشر القتل بنفسه[1].

وبعد رجوع ابن زرقون من المنطقة الشرقية من حربه أسكيا نوح عمل الاحتياطات التي تقتضيها الظروف لإلقاء القبض على قاضي تمبكت وأسرته وسائر علماء تمبكت، فدعا جميع أهل تنبكت إلى تجديد البيعة للسلطان وسار المنادي في شوارع وأحياء تمبكت يطلب من أهل المدينة أن يهرعوا إلى مسجد سنكري لتأدية البيعة العامة للسلطان، وأن يصحبوا معهم المصاحف وصحيح البخاري ومسلم فجمع كافة أهل تمبكت في المسجد المذكور، وعند حضور العلماء أغلقت أبواب المسجد عليهم وظهر الرماة على الأسطحة المجاورة وفي أركان الأزقة المؤدية إلى المسجد شاهرين أسلحتهم النارية وأخرج الناس من المسجد إلا الفقهاء والعلماء وأصحابهم وأتباعهم فقبض عليهم جميعاً الباشا محمود بن زرقون وعلى رأسهم القاضي عمر أقيت وعند احتجاج بعضهم أثناء سوقهم بخشونة إلى السجن ومركز التعذيب صدرت الأوامر بإطلاق الرصاص فسقط أربعة عشر منهم قتيلاً وعدد من الجرحى. ومن القتلى تسعة من فقهاء سنكري[2].

وذكر السعدي أن الباشا محمود دخل ديار الفقهاء والعلماء وأخذ

---

(١) تاريخ السودان ص ١٦٦، وذكر قصة قتل الشريفين وعائلتهما أيضاً صاحب كتاب بداية الحكم المغربي في السودان ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ نقلاً عن نفس المصدر.

(٢) تاريخ السودان ص ١٦٩ ـ ١٧٠ وتاريخ الفتاش ص ١٧٣ ـ ١٧٤ والاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى ص ١٢٩ ـ ١٣٠ وما بعدها، وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ نقلاً عن المرجعين الأولين.

جميع ما فيها من الأموال والمتاع والأثاث مالا يدخل تحت حصر ولا يحصيها إلا الله ما بين أملاكهم وأملاك سائر الناس من الودائع. ونهب أتباعه ما اتصلوا به وقام جيشه بكشف عورات الحرائر من نساء الفقهاء وبناتهم وفعلوا فيهن الفاحشة واقتدوهن إلى القصبة ليعاشرهن العساكر هناك، وأمضى العلماء ونساؤهم ستة أشهر في السجون قبل تغريبهم إلى مراكش[1].

وقد توجه العلماء في سلاسلهم إلى مراكش صحبة قائد علجي والكاهية فريدو النصراني مقيدين ومعهم نساؤهم وأولادهم وعدد من عبيدهم سنة ١٥٩٤م الموافق ١٠٠٢هـ وذكر القاضي محمود كعت أن عددهم نيف وسبعون ولم يرجع منهم سوى أحمد بابا بعد أن مكث هناك عشرين سنة غير ستة أشهر[2]. ولم يتحمل أولئك العلماء والفقهاء صعوبة الطريق ومشاقه ولا قساوة طقس الصحراء في ذلك الوقت من العام، ولاسيما أنهم كانوا معتقلين لعدة أشهر في ظروف سيئة مثقلين بالسلاسل، وأغلبهم تجاوز سن الشباب، وقد ذهب هؤلاء العلماء بغير كتبهم وأوراقهم فإن جنود المغاربة قد أحرقوا كل شيء ونهبوا أموالهم وذخائرهم وكتبهم[3].

وذكر أحمد بابا أنه نهب له في تلك المحنة ألف وستمائة مجلد، وقال: أنا أقل عشيرتي كتباً. وكان القبض عليهم وتعذيبهم في أواخر محرم سنة ١٠٠٢هـ، ووصلوا إلى مراكش في أول رمضان من

---

(١) تاريخ السودان ص ١٧١ والفتاش ص ١٧٣، وبداية الحكم ص ٣٢٨.

(٢) تاريخ الفتاش ص ١٧٤ وانظر تاريخ السودان ص ١٧١ ـ ١٧٢ وأمضى العلماء مدداً في سجن مراكش قبل إطلاق سراحهم ولم يسمح لهم المنصور بالعودة وبعد وفاته سمح السلطان زيدان لأحمد بابا بالعودة إلى تمبكت وتوفي في تمبكت سنة ١٠٣٢هـ، شجرة النور الزكية ص ٢٩٩.

(٣) الاستقصاء في أخبار الدول المغرب الأقصى ص ١٣٠ وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ١٩٩ وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٣٢٨. وانظر ترجمة أحمد بابا نفسه من كتابه كفاية المحتاج مخطوط.

السنة نفسها واستقروا في المعتقل مع عيالهم. وأطلق سراحهم بشرط عدم العودة إلى السودان يوم الأحد الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة ١٠٠٤هـ[١].

وذكر صاحب الاستقصاء في دول المغرب الأقصى: أن أحمد بابا دخل على المنصور الذهبي بعد تسريحه من السجن فوجده يكلم الناس من وراء حجاب وبينه وبينهم كلة مسدولة. فقال له الشيخ أحمد بابا: (إن الله تعالى يقول: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾ وأنت تشبهت برب الأرباب، فإن كانت لك حاجة في الكلام فانزل إلينا وارفع عنا الحجاب، فنزل ورفعت الأستار. فقال له الشيخ: أي حاجة لك في نهب متاعي وتضييع كتبي وتصفيدي من تنبكت إلى هنا حتى سقطت عن ظهر الجمل واندقت ساقي؟...)[٢].

وقد وصف القاضي محمود كعت مدينة تمبكت في أيام حكم سنغاي قبل استيلاء المغاربة عليها وترحيل علمائها عنها، وبين ما عليه أهلها في عهد سنغاي من الصلاح والتقوى والعلم فقال: (فتنبكت يومئذ لا نظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب مروءة وحرية وتعففاً وصيانة، وحفظ العرض، ورأفة ورحمة بالمساكين والغرباء، وتلطفاً بطلبة العلم وإعانتهم، وأماسن[٣] فهم أجل عباد الله

---

(١) المراجع السابقة في نفس الصفحات وانظر أيضاً كتابه: كفاية المحتاج لمعرفة ما ليس في الديباج. مخطوط وتوجد منه نسخة في مكتبة الحرم بمكة المكرمة، وذكر الإفراني نقلاً عن أحمد بابا نفسه أن مكتبته بلغت ستمائة وألف مجلد. انظر صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي شعر ص ٥٢ للإفراني محمد الصغير بن محمد بن عبد الله المراكشي.

(٢) الاستقصاء ص ١٣٠.

(٣) سن بفتح السين ونون ساكنة بعدها: قوم من السودان اشتهروا بالدين والكرم والمروءة والإحسان إلى الناس والأظهر أنهم شعب سنغاي حيث لا تزال هذه الأوصاف موجودة فيهم إلى هذا اليوم.

في زمانهم كرماً وحفظ المروءة والسكوت وترك مالا يعني ولزوم بيوتهم ونفع المسلمين ورفد محتاجهم وتلك فيهم خلقة وجبلة رحمهم الله ورضي عنهم ورحم أسلافهم وأبقى مخلوفهم في سلامة وستر واقتفاء آثارهم. وهي أي تنبكت يومئذ ليس فيها حكم إلا حكم متولي الشرع، ولا سلطان فيها، والقاضي هو السلطان وبيده الحل والربط وحده، ومثلها في أيام سلطنة سلطان مالي (جعب) بلد الفقهاء وهي في وسط أرض مالي لا يدخلها سلطان مالي وليس لأحد حكم فيها إلا قاضيها ومن دخلها كان آمناً من ضيم السلطان وجوره، ومن قتل ولد السلطان ـ (أي في مدينة جعب). التي سماها بلد الفقهاء ـ لا يسأله السلطان بدمه. ومثلها (أي مثل تمبكت) بلد يقال له كنجور بلد بأرض كياك بلد قاضي تلك الأقاليم وعلمائها لا يدخلها جندي ولا يسكنها أحد من الظلمة إلا سلطان كياك يزور علماءها وقاضيها في شهر رمضان من كل عام على عادتهم القديمة بصدقاته وهداياه ويفرقها عليهم وإذا كانت ليلة القدر يأمر بطبخ الطعام ثم يجعل المطبوخ في المائدة أي القدح الكبير ويحملها فوق رأسه وينادي قراء القرآن وصبيان المكتب ويأكلونها والقدح على رأسه يحملها وهو قاعد وهم قائمون يأكلون تعظيماً لهم. . .)[1] انتهى. هذا بعض ما حكاه القاضي محمود كعت عن مدينة تمبكت وغيرها من مدن السودان في عهد أمبراطورية سنغاي وما امتاز به هذا العهد من الدين والأمن وإكرام العلماء وطلبة العلم وصلاح الأحوال قبل نزول المحنة على مدينة تمبكت وغاو، وجنى بسبب غزو المغاربة لها.

---

(١) تاريخ الفتاش للقاضي محمود ص ١٧٨ ـ ١٧٩ ـ ١٨٠ وقد ذكر صاحب الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى: أن أهل السودان قبل غزو المغاربة لهم: أنهم أحسن الأمم إسلاماً وأقومهم ديناً وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلاً ومحبة ص ١٣١.

وقد وصف القاضي محمود كعت أيضاً حالة مدينة تمبكت وغيرها من مدن السودان بعد استيلاء المغاربة عليها وتغريب العلماء والفقهاء وبين ما أصاب الإسلام وثقافته وحضارته وما حل بتلك البلاد بالبلاء والخرافات والبدع. فقال: (ولما أجلاهم القوم وارتحلوا صارت تنبكت جسماً بلا روح وانعكس أمورها وتغير حالها وتبدل عوائدها ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها، وساد أرذالها على عظمائها، وباعوا الدين بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى، وعطلت الأحكام الشرعية، وأميتت السنة وأحيت البدع، ولا بقي فيها من يتمسك بالسنة ولا من يسير على منهج التقوى في ذلك الوقت سوى محمد بغيع...)[1].

وهذه تمبكت التي كانت ينبوعاً للثقافة الإسلامية ومنارة للعلم والأدب أضاءت الطريق أمام شعوب السودان الغربي تحت حكم سنغاي، وكان أهلها يتحلون بفضائل الأخلاق والكرم، آلت إلى بؤرة للفساد ومكاناً للضلال والبدع والخرافات لا لشيء إلا أن المنصور الذهبي أراد أن يضيفها إلى الخلافة الإسلامية[2]. وكان أهل السنغاي قبل هذا الغزو المدمر في غاية من الجود والكرم ومكارم الأخلاق. وقد ذكر القاضي محمود ما كان عليه أسكيا إسحاق الذي حاربه جودر الإسباني من كرم وجود ومكارم الأخلاق وحب العلماء والطلبة والتفاني في إكرامهم وعامة الناس. وقال: (كان أسكيا إسحاق كريماً سموحاً جواداً جميل الوجه بلغ غاية في التصدق والعطاء محب للعلماء ومكرماً لهم... ومما يؤثر من كرم أسكيا إسحاق وجوده أنه قال: في مجلسه يوماً وهو يوم عيد الفطر وسنغاي كلهم حاضرون وأعيان بلد غاو

---

(١) تاريخ الفتاش ص ١٧٥.

(٢) تاريخ السودان ص ١٤٢ ـ ١٤٣ والاستقصاء ص ١١٣ـ ١١٤ وص ١٣١ ـ ١٣٢ والعلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي ١٢٠ ـ ١٢١.

وخاصتها وعامتها وقال لترجمانه (وندع) قل لهذه الجماعة هل بقي أحد من أهل كاغ (غاو) من لم يدخل يده إعطائي وصدقتي في داره من هذا رمضان، وكل من لم يصل إليه سبي وإعطائي فليقم ويذكر ذلك فنعطيه الآن، فقال وندع وهو قائم على رجليه ينادي به ويكرره ولم يخرج منهم أحد يذكر أنه لم يصله منحه شاع ذلك القول في البلد، وكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن ذلك ولم يقل أحد أنه لم ير خيره ولا وصله أعطاؤه في ذلك. وكفى بهذا كرماً وحلماً وجوداً وسعة ملكه وكثرة ذات يده، فانظر غاو وعظمها وكثرة سكانها...)[1].

وذكر السعدي ما وجدته حملة المغاربة في السودان من الخير والرفاهية والاستقرار والأمن فقال: (فوجدت هذه الحملة أرض السودان يومئذ من أعظم أرض الله تعالى نعمة ورفاهية وأمناً وعافية في كل جهة ومكان ببركة ولاية الأسعد المبارك أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر من عدله وشدة حكمه الشامل العام الذي كما ينفذ في دار سلطنته، كذلك ينفذ في أطراف مملكته من حد أرض دند إلى حد أرض الحمدية، ومن حد أرض بندك إلى تغاز وتوات وما في أحوازهن. فتغير الجميع حينئذ وصار الأمن خوفاً والنعمة عذاباً وحسرة والعافية بلاء وشدة ودخل الناس يأكل بعضهم بعضاً في جميع الأمكنة طولاً وعرضاً بالإغارة والحرابة على الأموال والنفوس والرقاب فعم ذلك الفساد وانتشر وبالغ واشتهر)[2].

وقد ذكر صاحب الاستقصاء ما كان عليه أهل السودان الغربي من الدين والعلم في عهد امراطورية سنغاي الإسلامية والدول الإسلامية التي قامت قبلها في المنطقة فقال: (قد تبين لك بما قصصناه عليك

---

(١) الفتاش ص ١٤٣ ـ ١٤٤ـ ١٤٥.

(٢) تاريخ السودان ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

من أخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الإسلام من لدن قديم، وأنهم من أحسن الأمم إسلاماً وأقومهم ديناً، وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلاً ومحبة...)[1] وقد قامت الثقافة والحضارة في دول السودان الغربي (أفريقيا الغربي) القديمة غانا ومالي وسنغاي على أسس إسلامية متينة وسليمة لتعيش هذه الدول بحضارتها وثقافتها الإسلامية العربية قروناً طويلة ثم تتحول بسبب تدمير هذه الحضارة والثقافة الزاهرة من قبل من يدعي الإسلام إلى مجرد قصص يتناقلها الرواة. لقد كانت الحضارة في أرض السنغاي (السودان الغربي) سابقة للحضارة في أوروبا، ولكن لا يمكن لأي دولة أن تتابع تقدمها الحضاري والثقافي إذا تقسمت إلى دول صغيرة تتقاتل فيما بينها، فيشغل أهلوها بالدفاع للبقاء والوجود عن ازدهار الحضارة والتقدم بالعلم، كما لا يمكن أن تتابع النهضة العلمية تقدمها والعلماء يساقون في جحافل لخارج البلاد والكتب الثمينة تحرق وتمزق ويلقى خيار العلماء في غياهب السجون أو يعدمون[2]. وقد جاء المستعمرون البيض وانتهزوا الفوضى الذي أحدثه غزو الدولة السعدية للسودان ليسدوا الطريق أمام التاريخ القديم وازدهار الحضارة والثقافة الإسلاميتين في ذلك التاريخ المجيد في عمر المنطقة ليحاولوا تسجيل تاريخ جديد من بداية وصولهم إلى البلاد وكأنه قد نشأ من عدم. وهكذا طوى

---

(١) الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى ص ١٣١ ـ ١٣٢ ـ ١٣٣ وما بعدها.

(٢) انظر أفريقيا من السنغال إلى نهر جيبا ص ١٢١ وتعتبر مذبحة جامع سنكري من الأحداث التي يندى لها الجبين خجلاً وهي وصمة عار في جبين السعديين والمنصور بالخصوص ودليل قاطع على الغدر والخيانة وتمثل صورة من صور الامتهان الذي مارسه جنود المنصور السعدي ضد العلماء والعلم والثقافة الإسلامية والدين وضد أهالي سنغاي باسم الدين ونشر الإسلام، وبينما يدعي المنصور أنه خليفة المسلمين، وينادي بالدخول في خلافته الإسلامية يقوم جنوده بقتل العلماء والأبرياء وإحراق الكتب والذخائر العلمية في الجامعات وبيوت الله. انظر العلاقات بين المغرب والسودان ص ١١٠ ـ ١١١.

جيش مراكش صفحة من تاريخ دولة إسلامية قامت بخدمات جليلة في سبيل نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في المنطقة وسادت على السودان الغربي ما يزيد على قرنين من الزمان وكان لها في تاريخ انتشار الإسلام وازدهاره شأن عظيم، طوت جيوش السعديين هذه الصفحات المجيدة في تاريخ المنطقة دون تحقيق شيء من أطماع سلاطين مراكش ولو تعاونت الدولتان على تحقيق مصالح المسلمين والنهوض بهم وصد جيوش الاستعمار التي كانت جاشمة على شواطئهما لكان خيراً لهما، إذا استغلت الدول الأوروبية ما حل بهما نتيجة هذا الغزو فاستعمرتهما وسواهما من العالم الإسلامي[1].

نتائج استيلاء المغاربة على أمبراطورية سنغاي الإسلامية والقضاء عليها بشكل نهائي

نتج عن غزو المغرب أمبراطورية سنغاي الإسلامية نتائج سيئة وتطورات ثقافية ودينية واقتصادية وسياسية بعيدة المدى بالنسبة لشعب السنغاي المسلم وبالنسبة لمسلمي أفريقية عامة.

أولاً: من الناحية الثقافية:

أ ـ قبض الباشا محمود بن زرقون على معظم علماء سنغاي وخيار الفقهاء وساقهم أسرى مقيدين في سلاسل من حديد إلى مراكش واعتدى جنود المغاربة على معاهد العلم ومكتباته في مدن امبراطورية سنغاي وقراها ينهبون ويخربون ويحرقون المكتبات، فضلاً عن الغارات الهمجية التي شنتها القبائل والممالك الوثنية على أمبراطورية سنغاي عندما أحست بضعفها والتي كانت تتربص لها الدوائر وتتحين الفرصة

(١) انظر الاستقصاء ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ـ ١٣١ والفتاش ١٧٣ ـ ١٧٤ ـ ١٧٥ وتاريخ السودان ص ١٤٢ ـ ١٤٣ والعلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وأمبراطورية سنغاي في غرب أفريقية ص ٦٤١ من مجلة كلية الشريعة بالإحساء بحث الدكتور محمد النقيرة.

للهجوم على المسلمين ومعاهدهم، وقد دمرت مظاهر الحضارة والثقافة الإسلامية، ولذلك أغلق كثير من معاهد العلم ومكتباته والتي كانت تشع في أرجاء السودان الغربي علماً ونوراً وضاعت مؤلفات كثيرة لعلماء سنغاي وتوقفت دروس العلم في معظم المساجد في تمبكت وغاو وجنى.

وخبى نور الثقافة الإسلامية في أنحاء السودان كله[١].

ب: قضى جنود الغزو والاحتلال على مراكز الثقافة الإسلامية التي كانت ينبوعاً للثقافة الإسلامية واللغة العربية ومنارة أضاءت غرب أفريقيا كله. وقد كانت جنود أحمد المنصور الذهبي معظمهم من المرتزقة، وكانت لغة جيش جودر الرسمية هي الإسبانية[٢]. فأدى هذا الجيش المشكوك في إسلامه إلى تدهور مستوى اللغة وتدنيها إلى أدنى مستوى في جميع أنحاء السودان الغربي وكذلك الثقافة الإسلامية فبدلاً من أن يقوم هذا الجيش بتعزيز اللغة العربية وتقويتها سبب في تدهورها وتدميرها. والمعروف أن الدول المهزومة تعمل على تقليد الفاتحين في كل شيء وخاصة في اللغة والثقافة كما هو مشاهد الآن في انتشار اللغتين الأنجليزية والفرنسية في مستعمراتهما السابقة في آسيا وأفريقيا. وكان الأمر بالعكس في غزو المغاربة السودان تدهورت اللغة العربية وثقافتها في المنطقة. وكان بين جيش المنصور الذي استولى على أمبراطورية سنغاي الإسلامية عدد كبير من الجنود المسيحيين في الحملة[٣]، كما كان هناك بعض كبار القواد من القساوسة فالقائد مامي

---

(١) انظر المراجع السابقة.

(٢) انظر العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغاي ص ١١٩ وتاريخ الدول الإسلامية السودانية أفريقية الغربية ص ١٦٦.

(٣) نقولا زيادة: المغرب والسودان أيام المنصور الذهبي، كتاب العيد ص ٨٠ ـ ٨٢ الجامعة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٦٧ وانظر العلاقات بين المغرب والسودان ص ١١٩.

قسيس والقائد فريدو قسيس، والقائد باختيار قسيس وهو من كبار القيادات في السودان وغيرهم[1]. ومن المعلوم بالضرورة أن الجنود المسيحيين والقساوسة لم يعملوا على نشر الثقافة الإسلامية ولا على نشر الدين الإسلامي ولغته، بل ثبت بما لا يقبل الشك أنهم أثروا تأثيراً عكسياً على عقائد المسلمين السودانيين وساعدوا على انتشار البدع والخرافات والطرق الصوفية. كما بدا واضحاً للعيان أن هدف الحملة على أمبراطورية سنغاي الإسلامية كان هدفاً مادياً بحتاً[2].

ثانياً: من الناحية الدينية:

أضرت الحملة المغربية على سنغاي بمستقبل الإسلام والمسلمين لا في السودان الغربي فقط بل في القارة الأفريقية كلها وذلك أن أمبراطورية سنغاي الإسلامية قامت بجهود كبيرة في نشر الدين الإسلامي فيما جاورها من بقاع أفريقيا، واستقدمت الفقهاء والعلماء لتعليم الناس أمور دينهم وشجعت الدعاة على نشر العقيدة الإسلامية السليمة في السودان، فلما قضى المغرب على حكومتها وعلى جيشها وحلت حكومات الباشوات محلها هاجمت سنغاي القبائل الوثنية والبربرية تقتل وتنهب وتدمر مراكز الدين والكتب العلمية وبيوت الله، كما حاصرها البرتغاليون والإنجليز والفرنسيون واحتلوا سواحلها ثم احتلوها في النهاية وأخذوا ينشرون المسيحية بين المسلمين ويحاربون تقدم الإسلام ودعاته في كل مكان من القارة[3].

بالإضافة إلى هذا كله فإن غزو المغرب السودان لم يكن له أي

---

(١) انظر تاريخ السودان ص ١٥٤ ـ ١٥٧ والعلاقات بين المغرب والسودان ص ١١٩ وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٣٣١ ـ ٣٣٣.

(٢) انظر تاريخ السودان ص ١٤٢ ـ ١٤٣ وتاريخ الفتاش ص ١٧٥ والعلاقات ص ١١٩.

(٣) انظر المراجع السابقة والعلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وبين أمبراطورية سنغاي بغربي أفريقيا في القرن العاشر الهجري للنقيرة بحث منشور في مجلة كلية الشريعة بالإحساء ص

فائدة للإسلام والمسلمين سوى آثار في غاية من السوء بالنسبة للمسلمين في المغرب والسودان معاً، وذلك أن البرتغاليين كانوا أثناء الغزو لا يزالون جاثمين على أهم بعض الثغور المغربية واحتلوا بعض سواحلها وأخذوا يتدفقون على البلاد الإسلامية فلو وجهت الجيوش المغربية لإخراجهم من الأجزاء المغربية التي احتلوها، ومحاربة تدفقهم على البلاد الإسلامية الأخرى لكان خيراً من محاربة المسلمين في السودان بجيوش أكثرها كافرة طمعاً في الذهب والمال.

ثالثاً: من الناحية الاقتصادية؛

لم يستطع المغرب الاستيلاء على ثروات السودان الغربي كلها ولا استعادة تجارته كما توهم المنصور إذ فتكت الأوبئة والأمراض بمعظم جيشه وألقى القائد محمود بن زرقون القبض على كبار تجار سنغاي وأرسلهم أسرى إلى مراكش بعد أن نهبت ثرواتهم فكسدت تجارة السودان وتدهور اقتصاده ولم يستفد من ذلك المغرب ولا أمبراطورية سنغاي[1].

لقد كان نظام التجار المراكشيين في السابق الذي كان يعتمد على التبادل التجاري مع السودانيين دون محاولة الوصول إلى المناجم واستغلالها مباشرة أنجح من الخطة التي لجأ إليها المنصور، لقد أضرت الحملة المغربية ضرراً بالغاً بتجارة السودان الغربي مع المغرب ومع الدول العربية الأخرى في شمال أفريقية، فقد كان العرب وسكان شمال أفريقيا يسيطرون على تجارة السودان الغربي في عهد أمبراطورية سنغاي ولم يسمحوا للأوربيين بالتعامل المباشر مع السودانيين، ولكن استيلاء المغاربة على السودان الغربي قضى على تجارة الصحراء، وأصبح الذهب يذهب

---

(١) مملكة سنغاي في عهد الأسكيين ص ٨٨ ـ ٨٩ ـ ٩٠ ـ ٩١ ـ ٩٢ والمراجع السابقة وانظر أيضاً انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى ص ٧١ لحسن إبراهيم حسن.

إلى السواحل الجنوبية التي احتلها الأوروبيون، فسيطروا على تجارة الذهب وبالتالي انتقلت تجارة الذهب إلى سواحل أفريقيا بدلاً من طريق رالصحراء الذي كان مساراً لها عبر القرون. ومنذ القرن السادس عشر الميلادي أصبح اهتمام غرب أفريقيا مركزاً على السواحل وعلى أوروبا. وبهذا نصل إلى أن استيلاء المغرب على السودان الغربي، وتحول تجارة الذهب إلى أوروبا مكن الدول الغربية من الإثراء والازدهار كما عاق الاحتلال ازدهار الشمال الإفريقي حيث أصبحت التجارة مع الأوروبيين عن طريق الساحل أسهل للسودانيين من طريق الصحراء غير المأمون. وأدرك المنصور أن السودان بلد فقير وأن التجارة قد توقفت، وأحس بخيبة الأمل وواجهته النفقات الباهظة والثورات في بلده وفي السودان الغربي، وسمح بالتدريج للغزو أن يهوي إلى عملية الابتزاز الاستبدادي[1].

رابعاً: من الناحية السياسية:

قضى المغرب على استقلال أكبر دولة مسلمة في أفريقيا وهي أمبراطورية سنغاي التي سيطرت على السودان الغربي ونشرت الإسلام وحضارته في ربوع أفريقيا الغربية قبل تلك الغزاة بمئات السنين ووطدت علاقاتها السياسية والاقتصادية والثقافية مع الدول الإسلامية في المغرب والمشرق في ذلك الوقت.

ومن جهة أخرى قضت هذه الحملة على جيش المغرب وجيش سنغاي على حد سواء إذ أباد جيش المغرب معظم جيش سنغاي بينما أبادت الأمراض والأوبئة أكثر جيش المغرب فاضطرب حبل الأمن في تلك الجهات. فقد المنصور ثلاثة وعشرين ألفاً من خيرة جنوده في أرض السودان الغربي منذ بداية الفتح حتى نهايته، يقول السعدي: (قال العلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله تعالى أخبره الأمير السلطان

---

(١) العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين مالي وسنغاي ص ١٧٧ وص ١١٨.

مولاي زيدان بن أحمد المنصور: أن نهاية الرجال الذين صرفهم والده في الحملات من لدن الباشا جودر إلى الباشا سليمان ثلاثة وعشرون ألف نفس من خيرة جيشه وهي مقيدة في الزمام، قال أضاعهم الوالد باطلاً ولم يرجع منهم أحد لمراكش فيموت فيه إلا نحو خمسمائة رجل كلهم ماتوا في أرض السودان[١].

وبعد وفاة المنصور لم يستطع خليفته زيدان أن يحافظ على السودان الغربي وتخلى عنه مما أدى إلى إثارة النزاع بين القادة وتقاتلهم فيما بينهم، وبلغ بهم الضعف مبلغاً جعلهم يدفعون الجزية لحكام سيجو الوثنيين، فاستبدلوا سيادة سنغاي المسلمة على أراضيها بسيادة سيجو الوثنية، وبدلاً من أن يكون المنصور قد ضم بلاداً إسلامية لخلافته المسلمة قطع جزءاً عزيزاً من العالم الإسلامي وسلم سيادته لسلطة وثنية، واستقلت حامية جاو وجنى وبنبا ولم يبق للباشوات إلا مدينة تنبكت[٢].

ولما ساءت الأحوال قرر زيدان أن يتخلى نهائياً عن السودان عام ١٦١٨م ودفن مشروع والده. . .[٣].

---

(١) تاريخ السودان ص ١٩١ والعلاقات بين المغرب الأقصى والسودان ص ١١٦.
(٢) المرجع السابق ص ١١٨.
(٣) المراجع السابقة.

obeikandl.com